روايات  عالمية

الرجل الهادئ

THE QUIET AMERICAN

الرجل الهادئ

تأليف جراهام جرين

ترجمة كمال عصمت الشريف

الفصـــل الأول

بعد أن تناولت عشائى جلست أنتظر « بيل » فى غرفتى المطلة على شـــارع « كاتيئات » بسايجون ، فلقد واعدنى على اللقـــاء فى الساعة العاشرة مساء على الأكثر ، وعندما أعلنت الساعة انتصاف الليل لم أستطع صبرا وخرجت من مسكنى الى الشارع •

وكان الشارع به كثير من النساء اللواتى يرتدين «البنطلونات» ممن دفعتهن حرارة الجو الى ترك منازلهن فلقد كان الوقت فى شهر فبراير والحرارة شـــديدة مما يجعل النوم فى الفراش متعذرا ، ومر بى سائق « ريكشو » متجها الى النهر ورأيت المصابيح مضاءة حيث أفرغت الطائرات الأمريكية الجديدة ، ولم أر أثرا لبيل فى الشارع وقلت لنفسى ربما ذهب لسبب ما الى مقر البعثة الأمريكية ، وتوقعت أنه اذا كان قد فعل ذلك فلابد أنه ترك خبرا فى المطعم ، فلقـــد كان ممن يهتمون بالواجب واللياقة ، واضطررت لأن أدخـــل المطعم عنـــدما لمحت فتاة تقف فى مدخل المبنى المجـــاور للمطعم ولم أكن أســـتطيع رؤية وجهها بل كل ما رأيته هو « بنطلونها » الحـــريرى الأبيض والرداء « المشجر » الذى ترتديه فوقه ، وبرغم ذلك فقـــد عرفتها ، فطالما انتظرتنى هى نفسها عند عودتى الى المنزل فى مثـــل هذا الوقت وهذه الساعة وقلت لها مناديا •

ـ « فونج » انه غير موجود فردت على قائلة :

ـ أنا أعلم فقد رأيتك وحدك من النافذة •

ـ يمكنك أن تنتظريه فى المنزل • عودى فسوف يأتى حالا •

فردت على قائلة :

ـ سأنتظره هنا •

فقلت لها :

ـ يحسن ألا تنتظريه هنا فقد يقبض عليك رجال البوليس .

فتبعتني الى المنزل ، وفي الطريق راودتني أفكار مؤلمة ولم أكن راغبا في جرح شعورها أو ايلام نفسي ، وظللنا سائرين الى المنزل وعندما مررنا بالنسوة الجالسات في الطريق سمعناهن يثرثرن بكلام لم أفهمه فقالت :

ـ ماذا تقول تلك النسوة ؟

ـ انهن يقلن انني قد عدت الى المنزل .

ووصلنا الى المنزل وفي الغرفة رأيت الشجرة التي أعددتها لعيد رأس السنة الصينية الجديدة قد تناثرت زهورها الصفراء وسقطت على مفاتيح آلتي الكاتبة ، فجمعت الزهور المتناثرة ، وقالت فونج :

ـ هل هناك اضطرابات في المدينة ؟

ـ لا أعتقد ذلك فان « بيل » ممن لا يسعون الى المتاعب وهو رجل لايخلف مواعيده .

وخلعت ربطة العنق والحذاء وتمددت على السرير وأخذت فونج تغلي الماء لعمل الشاي كما كان الحال منذ ستة شهور .

وقالت فونج :

ـ لقد قال لي : انك سوف تسافر قريبا .

ـ ربما .

ـ انه يحبك جدا .

ـ انى أشكره .

ولاحظت أنها قد صففت شعرها بطريقة جديدة ، فقد جعلته يسترسل على كتفيها . وتذكرت أن « بيل » كان قد نقد طريقة ترتيبها لشعرها .

وأغمضت عيني وفكرت فيها ـ انها بالنسبة لي تمثل صوت الماء وهو يغلي وارتطام فنجان الشاي بالطبق ـ انها تمثل ساعة من الليل والراحة . وقالت وكأنما تريد أن تعزيني لغيابه :

ـ انه لن يتأخر طويلا •

وأخذت أفكر فيما يتكلمان عنه اذا التقيا ـ فلقد كان بيل جادا أكثر من اللازم وطالما أرهقنى بمحاضراته عن الشرق الأقصى الذى لم يعرفه هو الا من بضعة شهور على حين قضيت فيه سنوات طوال •

وكانت الديموقراطية هى الموضوع الثانى الذى يحب أن يتكلم فيه ويكثر من الكلام عما تقوم به الولايات المتحدة من أعمال ـ أما فونج فكانت ذات جهل مطبق ـ فلو فرض أن ورد اسم هتلر فى حديثنا لتدخلت وسألت ومن يكون هتلر ؟ وكان الشرح والايضاح لها صعبا فهى لم تقابل ألمانيا أو بولنديا فى حياتها ولم يكن لديها أية معلومات عن جغرافية أوربا ـ فى حين أنهـــا كانت تعرف عن البعض أكثر مما أعرف فهى تعرف عن الأميرة مرجريت أخت ملـكة انجلترا أكثر مما أعرف أنا ـ وسمعتها تضع الصينية على طرف السرير وأنا مغمض عينى ـ فسألتها :

ـ أما زال بيل يحبك يا فونج ؟

ومددت ذراعى قائلا :

ـ هل هو •••

فضحكت وسمعت صوت اشعال عود كبريت وقالت :

ـ يحبنى ؟

فربما لم تفهم معنى سؤالى ثم قالت لى :

ـ هل أعد لك الشراب ؟

وسرعان ما أعدت الطاولة وأشعلت المصباح وانعكس ضـــوء المصباح على ملامحها التى فى لون العنبر وهى تنحنى فوق اللهب وقد ركزت اهتمامها وهى تضع الزجاجات على المائدة •

وقلت لها :

ـ أما زال بيل يشرب ؟

فقالت :

ـ نعم •

فقلت لها :

ـ يحسن بك أن تجعليه يفعل والا فلن يعود اليك .

وانشغلت هي في اعداد المائدة ، وبلغت الساعة المثبتة بجوار سريري الثانية عشرة والثلث واستراحت أعصابي وذهب عني التفكير في بيل .

وقلت لها :

ـ انت تعلمين أن بيل يعرف عني حبي للشراب قبل ان آوي الى فراشي وهو لا يحب أن يزعجني في مثل هذا الوقت وأعتقد أنه سوف يأتي في الصباح .

وناولتني الكأس التالية وقلت لها وأنا اضطجع في فراشي :

ـ لا تقلقي عليه فليس ثمة داع للقلق على الاطلاق .

وتناولت رشفة من الكأس وواصلت حديثي معها :

ـ عندما تركتني وذهبت مع بيـــل كان من حسن حظي أنني متعود الشراب لكي انسي هناك المنزل الجميـــل في شارع أورماي .

ـ لو أحببت ـ يجب عليك أن تعيشي لدى رجل لا يشرب يافونج .

فردت قائلة :

ـ لكنه وعد بأن يتزوجني .

فقلت :

ـ هذا بالطبع موضوع آخر .

ثم قالت :

ـ هل أعد لك كأسا ثالثة ؟

ـ نعم .

وأخذت أسائل نفسي : هل يمكن أن تبيت لدى هذه الليلة لو أن بيل لم يأت ؟

وقلت لها :

ـ ان بيل لن يأتي الآن ـ أرجو أن تبقى معي .

فناولتني الكأس وهزت رأسها نفياً . وما أن تناولت عدة جرعات حتى أصبح وجودها أو عدمه ذا أهميـــة ضئيلة .. وقالت:

ـ لماذا لم يأت بيل ؟

ـ أنى لى أن أعرف السبب ؟

ـ هل ذهب لمقابلة الجنرال ثى ؟

ـ لا أعرف عن ذلك شيئا .

ـ لقد قال لى انه ان لم يتناول عشاءه معك فسوف يحضر اليك فى منــزلك .

ـ لا تقلقى ـ فسوف يحضر .

ثم قلت بصوت عال :

ـ تمنيت لو كنت بيل .

وكان ألمى من قول هذا محتملا فقد ساعد الشراب على ذلك . وقرع طارق الباب فقلت :

ـ بيل .

فقالت :

ـ لا . انه ليس هو فليست هذه طريقة قرعه للباب .

وقرع الطارق الباب بنفاد صبر ـ فقفزت من مكانها نافذة الصبر وهوت شجرة عيد الميلاد فتساقطت أوراقها الصفراء ثانية على آلة الكاتبة . وفتح الباب ودخل رجل وقال :

ـ مسيو فوليه .

ـ أنا فرلو .

ولم يكن فى عزمى النهوض من أجل أحد رجال البوليس ـ وكنت أستطيع أن أرى « بنطلونه » القصير الكاكى دون أن أرفــع رأسى وقال :

ـ انك مطلوب حالا فى ادارة البوليس •

ـ ادارة البوليس الفرنسية أو الفيتنامية ؟

ـ الفرنسية •

قلت :

ـ ولماذا ؟

ـ لا أعرف •

وأشار الى فونج وقال :

ـ وأنت كذلك •

ـ خاطب السيدة بلهجة أكثر أدبا • كيف عرفت أنها هنا حتى تطلبها ؟

فقال انه ينفذ الأوامر الصادرة له •

ـ سوف أذهب الى ادارة البوليس صباحا •

ـ انك مطلوب حالا •

فنهضت ولبست رباط العنق والحذاء فقد كنت أعلم أن للبوليس سلطة واسعة وهو يستطيع أن يسحب الاذن « الممنوح » لى بالتجوال ويستطيع أن يحرمنى حضور المؤتمرات الصحفية التى تعقد • بل انهم يستطيعون أن يحرمونى تأشيرة الخروج • فالبلاد فى حالة حرب • وقانونية التصرفات ليست لازمة • وكنت أعرف رجلا غاب عنه طاهيه ـ فلما ذهب يسأل عنه البوليس ـ قالوا له انهم أطلقوا سراحه ولا يعلمون عنه شيئا وكذلك كانت عائلته لا تعلم مكان وجوده منذ طلبوه فى البوليس ـ وقالو لهم : ربما انضم الى الشيوعيين • أو انضم الى أحد الجيوش الخاصة بالهيئات المختلفة فى البلاد التى يكثر عددها حول سايجون مثل جيوش الهاو هاو أو الكاوديست أو جيش الجنرال ثى • وربما كان فى أحد السجون الفرنسية ـ وقد نكون سعيدا يربح الأموال من كسب النساء فى أحد الأعمال ـ وقد يكون قد أصيب بنوبة قلبية فى أثناء استجوابه ومات •

وقلت لرجل البوليس :

ـ انني لن أذهب ماشيا يجب أن تستأجر لى عربة ريكشـــو . فمن الواجب أن يحافظ الانسان على كرامته .

ولهذا السبب رفضت أن أتناول سيجارة من الضابط الفرنسى فى ادارة البوليس وأنا أستطيع أن اتخذ قرارا سريعا بسهولةبدون أن أغفل عن معنى الأسئلة التى توجه الى ـ وسألت نفسى : ماذا يريدونه منى؟ فلقد قابلت فيجو مفتش البوليس قبل ذلك فى عدة حفلات ـ وقد لاحظت انه يحب زوجته التى تتجاهله ـ وهى سيدة براقة المظهر شقراء الشعر ـ وفى ادارة البوليس رأيته جالسا خلف مكتبه وقد ظهر عليه التعب والانهاك وسط دخان السجائر والحرارة الشديدة وقد ارتدى « غطاء » فوق عينيه أخضر اللون ليحمى نظره من الضوء وأمامه على المكتب كتاب للكاتب الفرنسى « باسكال » يقطع الوقت بقراءته ـ وقد منعته من استجواب فونج الا فى حضورى فوافق على الفور دون معارضة وهو يتنهد بشكل يمثل ضيقه وتبرمه بالمقام فى سايجون وشدة الحرارة وبأحوال البشر كافة وقال لى بالانجليزية:

ـ انني آسف اذ طلبت منك المجيء .

فقلت انه لم يؤخذ رأيى فى ذلك بل أمرنى بالحضور .

فقال :

ـ ان العيب فى ذلك يرجع الى جهل رجال البوليس من أبناء البلاد .

وكان يتكلم وعيناه على صفحة الكتاب وقد تاه فى المناقشات التى يحويها . ثم قـــال :

ـ انني أريد أن أسألك بعض الأسئلة عن بيل .

ـ يحسن بك أن توجه هذه الأسئلة الى بيل نفسه .

ثم أخذ مفتش البوليس يسأل الفتاة :

ـ منذ متي تعيشين مع مسيو بيل .

ـ من حوالى شهر ـ لا أعرف بالتأكيد ؟

ـ كم أعطاك نظير اقامتك معه •

فقلت له :

ـ ليس لك الحق فى أن تسألها هذا السؤال • فانها ليست سلعة للبيع •

فقال :

ـ لقد كانت تعيش معك ـ أليس كذلك ـ لمدة سنتين ؟

فقلت :

ـ انني مراسل صحفي مفروض فى أن أتتبع أخبـــار حربكم وليس لك أن تسألنى عن نظامكم المحلي •

فقال :

ـ ماذا تعرف عن بيل ؟ أرجو أن تجيب عن أسئلتى يامسيو فولر • انني لا أحب أن أوجه هذه الأسئلة ـ ولكن الأمر « خطير »

ـ أرجو أن تصدقنى أن الأمر فى غاية الخطورة •

فقلت :

ـ انني لست واشيا • كل ما أستطيع أن أقوله لك عن بيـــل ان سنه اثنتان وثلاثون سنة ـ ويعمل فى بعثة المساعدة الاقتصادية وجنسيته أمريكى •

فقال :

ـ انك تبدو كصديق له •

وكان ينظر الى فونج ودخل أحد رجال البوليس الوطنيين يحمل ثلاثة أقداح من القهوة وقال فيجو :

ـ أوتحب أن تشرب الشاى ؟

فلم أرد عليه • وقلت :

ـ انني صديق لبيل ولماذا لا أكون ؟ ـ فسوف أعود الى وطني يوما ما ـ أليس كذلك ؟ • انني لن أستطيع أن آخذها معي وسوف

تكون سعيدة معه • فان هذا ترتيب معقول وسوف يتزوجها ـ فلقد قال لها ذلك ـ وهو كشخص لا بأس به فهو جاد ، وليس أحد هؤلاء المزعجين الذين يقيمون فى فندق الكونتيننتال أنه « أمريكى هادىء »

وبدا عليه أنه ينظر الى كلمات على مكتبه توضح ما عناه بسؤاله، وقلت :

ـ نعم • انه أمريكى هادىء جدا •

وجلس في مكتبه الشديد الحرارة ينتظر من أحدنا أن يتكلم، ودخلت ناموسة وهى تطن متأهبة للهجوم ، وأخذت ألاحظ فونج، وبدا عليها أنها لم تفهم ما عناه فيجو لأن معرفتها بالانجليزية كانت سيئة ـ وكانت جالسة فوق مقعدها الخشبى فى مكتب البوليس وهى لا تزال تؤمل لقاء بيل ـ ورأيت أن فيجو قد سره ذلك وسألنى :

ـ كيف عرفته أول مرة ؟

وسألت نفسى : لماذا أشرح له أن بيل هو الذى عرفنى أولا • فلقد رأيته في سبتمبر الماضي قادما عبر الميدان قاصدا « بار » الكونتيننتال ـ وشاهدت شابا غير مألوف ينظر الينا بسرعة وكان بساقيه الطويلتين وشعره القصير ونظرته الصافية يبدو أنه غير قادر على الايذاء وكانت المناضد المنصوبة على الطريق كلها مشغولة وتقدم منا وسألنى :

ـ هل تسمح لى بالجلوس معكم ؟•

ثم قال بأدب :

ـ ان اسمى بيل ، وأنا حديث العهد بالمدينة •

وجلس فى كرسى وطلب زجاجة بيرة • ثم نظر بسرعة حين دوى صوت انفجار وقال بلهفة وأمل :

ـ هل هذا صوت قنبلة يدوية ؟

وقلت وأنا آسف لخيبة أمله :

ـ أكثر ظنى أنه صوت عادم احدى السيارات •

ولم يكن صوت القنابل اليدوية يثير اهتمامي لكثرتها بل كنت

أسعى الى ما يمكن أن يسمى بالأخبار الحقيقية وفي الشارع ظهرت النســاء الوطنيات وقد ارتدين السراويل الحريرية البيضــاء ، « والسترات المشجرة » المحبوكة ذات الألوان الزاهية المشقوقة من الجانب ، وأخذت أراقبهن وأنا أفكر في أنني سوف أفتقد منظرهن عندما أترك هذه البلاد •

وقال بيل :

ـ انهن جميلات أليس كذلك ؟

ونظرت اليه من أعلى كأس البيرة التي أشربها ورددت قائلا بغير اهتمام :

ـ آه • طبعا •

فلقد كان من النوع الجاد • ثم قال :

ـ ان الوزير المفوض مهتم كثيرا بانفجارات القنابل اليدويه ـ فلو أصيب أحد منا فان ذلك يكون مخيفا •

فقلت :

ـ أصيب أحد منكم ؟

فقال :

ـ نعم • اني أرى أن ذلك يكون خطيرا ـ فان الكونجرس الأمريكي لن يحب ذلك •

وسألت نفسي : لماذا يحب الانسان أن يضايق السذج فربمـا كان هذا الشخص منذ عشرة أيام فحسب يسير في شوارع بوسطن وذراعاه مملوءتان بالكتب التي قرأها عن الشرق الأقصى ومشـاكل الصين • ولكنه لم يظهر عليه أنه سمع ما قلت فلقد كان مشـغولا بمشاكل الديمقراطية ومسئوليات الغرب ، وبدا عليه أنه كان قد عقد عزمه أن يكون مخلصا لا لفرد معين ولكن الى دولة • الى قارة • الى عالم •• حســنا هذا هو العالم كله فليحاول أن يصلح ما فيــه من أخطاء •

وسألت فيجو :

ـ هل هو في المشرحة ؟

فسألني :

ـ وكيف عرفت أنه مات ؟

وكان سؤالا سخيفا غير جدير برجل يقرأ « باسكال » وسخيفا كذلك من رجل يحب زوجته بشكل غريب فأنت لا تستطيع أن تحب بغير خيال .

وقلت :

ـ انني غير مذنب .

كما قلت لنفسي : ان ذلك صدق . ألم يكن بيل يرسم دائما طريقه بنفسه وبحثت في أعماق نفسي عن أى شعور حتى أمام شكوك رجل بوليس فلم أجد شيئا ، ونظرت بجد الى فونج فان الخبر سيكون صعبا عليها ، فلا بد أنها أحبته بطريقتها . ألم تكن تهواني ثم تركتني وذهبت الى بيل ، لقد ربطت نفسها بالشباب والأمل والطموح ، ولكن الشباب والأمل والطموح قد خيبت ظنها أكثر من التقدم في السن واليأس ـ وجلست في مكانها وهي تنظر الينا ، وظننت أنها لم تفهم بعد أنه قد مات . وسوف تكون فكرة صائبة لو استطعت أن أبعدها قبل أن تدرك الحقيقة . وكنت مستعدا أن أجيب عن كل الأسئلة لو استطعت أن أنهي المقابلة بسرعة لكي أتمكن من أن أقول لها الحقيقة فيما بيننا وبعيدا عن نظرة رجل البوليس وكراسي مكتبه الخشنة والمصباح العارى الذى أحاط به الناموس وقلت لفيجو :

ـ ما هو الوقت الذى يهمك أن تعرف فيه تحركاتي ؟

قال :

ـ مابين السادسة والعاشرة .

ـ انى متعود تناول مشروب في السادسة «بلوكاندة» الكونتننتال والسقاة يعرفونني .

وفي الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة تمشيت على رصيف الميناء لأرى الطائرات الأمريكية وهم يفرغونها ، ورأيت ويلكنز من وكالة الأنباء المتحدة واقفا على باب فندق ماجستيك .

ثم دخلت السينما المجاورة ، ومن السينما توجهت الى مطعم الطاحونة وأعتقد أنى وصلت الى هناك فى الثامنة والنصف وتناولت عشائي بمفردى وكان هناك « جرانجر » وتستطيع أن تسأله ـ ثم أخذت عربة الى المنزل فى العاشرة الا الربع وتستطيع أن تعثر على السائق بحيث انى كنت أنتظر بيل في العاشرة ولكنه لم يحضر .

ـ ولماذا كنت تنتظره ؟

ـ لقد خاطبنى تليفونيا . وقال انه يريد أن يرانى لأمر هام .

ـ هل لديك فكرة عن هذا الأمر ؟

ـ لا . ان كل شيء كان مهما بالنسبة لبيل .

ـ وهذه الفتاة التي تحبه هل تعرف أين كانت ؟

ـ كانت تنتظره في الخارج عند منتصف الليل . ـ وكان يبدو عليها أنها مشغولة انها لاتعرف شيئا ـ لماذا ؟ ـ الا ترى انها مازالت تؤمل رؤيته ؟

ـ بلى .

ـ وهل تعتقد أننى قتلته بسبب الغيرة ، أو أنها قتلته لأى سبب ؟ انه كان سيتزوجها .

قال :

ـ نعم .

ومرت فترة من الصمت ثم سألته :

ـ أين وجدتموه ؟

فقال :

ـ أسفل « الكوبرى » ـ غريقا فى الماء .

وكان مطعم الطاحونة مجاورا « للكوبرى » ، وعلى « الكوبرى » بوليس مسلح وكان للمطعم غطاء من الحديد المشبك لكى يمنع دخول القنابل اليدوية ولم يكن عبور « الكوبرى » مأمونا فى الليل . ان الشاطىء الآخر يكون تحت سيطرة الفيتناميين بعد حلول الظلام . ولا بد أنى تناولت عشائي على بعد خمسين ياردة من جثته .

وقلت :

ـ ان المشكلة هي أنه أقحم نفسه في المتاعب •

وقال فيجو :

ـ بصراحة ، انني لست آسفا على موته ، فلقد كان يتسبب في أضرار كثيرة •

فقلت :

ـ فليحفظنا الله دائما من السذج •

قال :

ـ نعم •

ـ ألا تستطيع أن ترى طريقته وعلى كل فقد كان أمريكيا عجيبا •

ـ هل يمكن أن تتعرف عليه ؟ • انى لآسف • ولكن « الروتين » ـ وان كان روتيننا غير محبب •

ولم أهتم بسؤاله : لماذا لم يطلب أحد موظفى المفوضية الأمريكية ؟ لأني أعرف السبب فان للفرنسيين وسائل عتيقة بالنسبة للمقاييس عندنا ، فهم يؤمنون بالشعور بالذنب ـ وان المجرم يجب أن يواجه بجريمته فقد يؤدى ذلك الى انهياره و « اكتشاف » أمره •

وقلت لنفسى مرة أخرى : انني برىء •

ومضى فيجو الى « البدروم » حيث توجد المشرحة وصوت الموتور للتبريد يعمل ـ وسحبوه من مكانه كما يسحب الانسان « صينية » من مكعبات الثلج ونظرت اليه ـ وكانت الجروح متجمدة ـ وقلت لفيجو :

ـ ألا ترى أن الجروح لم تتفتح فى حضورى ؟ لقد بالغتم فى « تثليجه » ـ ان البشر لم يكن لديهم ثلاجات فى العصور الوسطى •

ـ هل تعرفت عليه ؟

ـ آه • نعم •

وكان أصلح له لو بقى فى وطنه ، فلقد رأيته فى صورة عائلية يمتطي جوادا فى مزرعة كما رأيته فى صورة يستحم فى

أحد الشواطىء فى الولايات المتحدة ، ورأيت صورة ثالثة له فى أحد الأدوار العليا فى مبانى نيويورك . انه كان يسكن فى احدى ناطحات السحاب ويمارس المصارعة السريعة ويقوم بتناول الآيس كريم وشرب كؤوس المارتينى ــ وتناول اللبن عند الغداء « وسندوتشات » الدجاج .

وقال فيجو :

ــ انه لم يمت بسبب هذا «وهو يشير الى الجرح فى صدره»

ــ انكم تعملون بسرعة .

ــ يجب علينا ذلك فى مثل هذا الجو .

وأعادوا الطاولة الممدد عليها الى مكانها وأغلقوا الباب . وقال فيجو :

ــ الا تستطيع أن تساعدنا ؟ .

ــ نعم لا أستطيع .

وعدت مع فونج ماشيا الى مسكنى ، وكانت فونج لا تزال غير مدركة لما حدث ولم يكن لدى طريقة لاخبارها بما حدث برفق وعلى مهل .

وكنت مراسلا صحفيا واخذت أفكر بعقل الصحفى :

« موظف أمريكى يقتل فى سايجون » وأخذت أفكر فى الصحيفة التى أعمل بها وقلت لفونج :

ــ هل تـ[illegible]ـن بانتظارى عند مكتب التلغراف ؟ .

وتركتها وأرسلت التلغراف وعدت اليها وكنت أعلم أن الصحفيين الفرنسيين لابد أن يكونوا قد علموا بالحادث ولو أن فيجو كان منصفا لأوقف الرقيب يرقبني حتي يرسل الفرنسيون برقياتهم ... وبرغم أن بيل لم يكن مهما ــ فانه قبل موته كان مسئولا ــ على الاقل ــ عن موت خمسين فردا وكان من الخطأ [illegible] برقية مطولة تبين نشاطه لأن ذلك سوف يؤدى الى سوء العلاقات الانجلو امريكية . فسوف يتألم الوزير المفوض الامريكى

الذى كان يقــدر بيل لأنه حاصــل على درجة عاليــة فى أحد الموضوعات التى يمكن أن يحصل الأمريكيين على درجات فيها وربما كانت فى العلاقات العامة أو فى الدراســات الخاصــة بالشرق الأقصى . فلقد قرأ كثيرا من الكتب . وسألتنى فونج :

ـ أين بيل ؟ . ماذا يريد منا البوليس ؟ ».

فقلت لها :

ـ تعالى الى المنزل ».

قالت :

ـ هل سيأتى بيل ؟ ».

فقلت :

ـ ان احتمال حضــوره الينا مثــل احتمال ذهابه الى مكان آخر .

وكانت النسوة العجائز مازلن يثرثرن على الشاطىء فى الجو الذى اعتدل بعد حرارة النهار . وعندما فتحت بابى عرفت أن غرفتى قد فتشت . فان كل شىء كان مرتبا أحسن مما تركته .

وقالت فونج :

ـ هل أعد لك الشراب ؟.

ـ نعم .

وخلعت رباط العنق والحــذاء ، فان الصراع قد انتهى ، وجلست فونج القرفصاء عند طرف السرير وأشعلت المصباح ولون جلدها فى لون العنبر . وقلت لها بالفرنسية :

ـ لقد مات يا فونج .

فأمسكت بالكأس فى يدها ونظرت الى وهى تحاول أن تركز فهمها كطفل وقد قطبت بين حاجبيها قائلة :

ـ هل مات ؟ .

فقلت :

ـ ان بيل قد مات . لقد قتل ».

فوضعت الابرة من يدها وجلست على مقعدها ونظرت الى . ولم يكن هناك شعور أو دموع بل تفكير فحسب .

وقلت :

ـ يحسن بك أن تبقى الليل هنا .

فأطرقت برأسها ، وفى هذه الليلة استيقظت من نومى العميق وكانت نائمة وكان من الصعب ان اسمع صوت تنفسها . وهكذا بعد شهور طوال لم أعد وحدى ـ ثم فكرت وقد اعترانى الغضب من فيجو ونظارته الخضراء فى مكتب البوليس وممرات المفوضية الأمريكية وسألت نفسى : « هل أنا الوحيد الذى يهتم حقيقة بأمر بيل ؟ » .

الفصل الثاني

فى اليوم الأول الذى رأيت فيه بيل يعبر الميدان متوجها الى الكونتننتال كان هناك عديد من زملائى الصحفيين الأمريكيين - وكانوا خليطا من الشباب متوسطى العمر فيهم من تغلب عليه سمات الطفولة وفيهم المهرجون وفيهم ضخام الأجسام وصغارها - وكانوا جميعا يطلقون النكات اللاذعة على الفرنسيين الذين كانوا يخوضون الحرب .

فبعد كل اشتباك بين قوات الطرفين وبعد ازالة المصابين فى المعركة كان الفرنسيون يدعونهم الى هانوى التى تبعد عن سايجون مسافة أربع ساعات بالطائرة لكى يخاطبهم القائد العام الفرنسى مقدما لهم النتائج والأخبار - ويقيمون ليلة فى معسكر أعد للصحفيين - ثم تأخذهم السلطات العسكرية فى طائرات تطير بهم على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق ميدان المعركة وهذا الارتفاع هو أقصى مدى للمدافع الرشاشة . ثم تعود بهم الطائرات الى سايجون حيث يقيمون فى فندق الكونتننتال .

وكان بيل هادئا ويبدو متواضعا - وفى أول يوم قابلته كنت اضطر أن أميل ناحيته لكى أستطيع أن أسمع ما يقول وكان فى منتهى الجد - فكم من المرات رأيته ينطوى على نفسه كلما ترامى الينا صوت الصحفيين الأمريكيين المزعج وهم يتحاورون فى الشرفة وهى الشرفة التى كان يظن أنها بعيدة عن مدى القنابل اليدوية ولكنى لم أسمعه ينتقد أحدا .

وسألنى مرة :

- هل قرأت شيئا للكاتب « يورك هاردنج » ؟

ـ لا . . لا اظن انى قرات له شيئا . فى اى موضوع يكتب ؟ ».
فحدق بالنظر الى محل للألبان عبر الشارع وقال وكأنه يحلم :
ـ ان هذا المحل يصلح كمحل جميل لبيع ماء الصودا .

وتعجبت .. أى نوع عميق من الحنين للوطن يكمن وراء اختياره الغريب لملاحظة منظر غير مألوف ليذكره بالوطن ؟ ولكن الم ألاحظ أنا فى أثناء سيرى فى الشارع لأول مرة فى سايجون ذلك المحل الذى يبيع الروائح العطرية ويذكرنى بوطنى وعزيت نفسى وقتئذ بأن أوربا لا تبعد عنى سوى ثلاثين ساعة بالطائرة ؟ ».
ونظر بيل بعيدا عن محل اللبن وقال :

ـ ان يورك كتب كتابا اسمه « تقدم الصين الشيوعية » وانه لكتاب عميق جدا .

ـ أنا لم أقرأه . . هل تعرف يورك ».
فهز رأسه بتؤدة وقال :
ـ نعم . .

وظل صامتا ولكنه قطع صمته بعد قليل لكى يغير التأثير الذى عناه :

ـ اننى لا أعرفه جيدا . وأعتقد أنى قابلته مرتين .
وقد ارتحت اليه لذلك حيث أنه لم يتخذ من معرفته للكاتب مادة يفخر بها .

وعلمت فيما بعد أنه يكن احتراما كبيرا للكاتب الذى يتناول الموضوعات الجدية وفى رأيه أن الموضوعات الجدية لا تشمل كتب القصص أو الشعر أو كتابة المسرحيات ما لم تكن هذه تتناول أفكارا معاصرة تشغل الأذهان فى العالم . وقلت له :

ـ أنت تعلم . . أنك لو عشت فى مكان مدة طويلة فانك لا تهتم بقراءة ما كتب عنه .

قال :

ـ انى بالطبع احب أن أعرف ماذا يقول الرجل الذى يعيش فى دوامة الأحداث .

فقلت له :

ـ ثم تعود فتقارن ما يقول بكتابات يورك .

وقال وكأنما لاحظ تهكمي :

ـ نعم ...

ولكنه أضاف بطريقته المهذبة :

ـ انى أعتبرها منة كبيرة منك لو كان لديك الوقت لكى تعطينى صورة عن النقط الهامة ، فأنت تعلم أن يورك كان مقيما هنا منذ سنتين .

وأحببت فيه اخلاصه ليورك مهما كان يورك هذا . فلقد كان بيل صورة مغايرة للمحيطين بى من رجال الصحافة وافتقارهم الذى ينم عن البعد عن النضوج .

ثم بدأت أشرح له الموقف فى الشمال ـ فى تونكين ـ حيث كان الفرنسيون فى تلك الأيام يتشبثون بدلتا النهر الأحمر التى تشمل هانوى والميناء الشمالى الوحيد فى الهند الصينية ، حيث ينمو معظم الأرز وعندما ينضج تبتدىء « عادة » المعركة السنوية .. وقلت :

ـ هذا هو الشمال ، وقد يستطيع الفرنسيون البقاء فيه ، وذلك ما لم تتقدم الصين لمساعدة الفيتناميين ـ وانهاء حرب الغابات والجبال والمستنقعات ومزارع الأرز حيث تخوض الماء الى كتفيك ويختفى الأعداء « ببساطة » ويدفنون أسلحتهم ويرتدون ملابس الفلاحين ـ وتستطيع أن تسميها حربا نظامية .

فقال :

ـ وكيف الحال هنا فى الجنوب ؟ .

فقلت :

ـ ان الفرنسيين يسيطرون على الطرق حتى الساعة السابعة مساء ، ثم يسيطرون على أبراج المراقبة بعد ذلك ، وكذلك بالنسبة للمدن الى حد ما وليس معنى ذلك انك فى أمان والا فلماذا وضعوا الشباك الحديدية أمام المطاعم .

وقد شرحت هذا مرات للقادمين الجدد للمدينة من أعضاء البرلمان والوزير البريطانى الجديد ثم قلت :

ـ والآن .. هناك الجنرال ثى الذى كان رئيسا لأركان حرب جيش الكاوديست ولكنه التجأ الى الغابات ليحارب « الفرنسيين والشيوعيين » .

فقال بيل :

ـ أن يورك كتب يقول :

« ان ما يحتاج اليه الشرق الأقصى هو قوة ثالثة » . وكان من المتوقع أن أسمع منه هذه الآراء المتطرفة ، والميل الى سحر ما يذكى مثل الطابور الخامس والقوة الثالثة واليوم السابع ، وكان فى استطاعتى أن أوفر على نفسى وعلينا جميعا الكثير من المتاعب وعلى الأخص بالنسبة لبيل لو كنت قد كشفت عن اتجاهات عقله غير الناضج ـ ولكنى تركته بهذه الحقائق العارية ـ وذهبت أتمشى فى شارع الكاتينات « كعادتى » فيجب أن يتعلم هو نفسه حقيقة الأوضاع فى البلاد التى تسيطر على المقيم فيها مثلما تسيطر على عقله رائحة شىء ما ، فحقول الأرز الذهبية تحت أشعة الشمس الغاربة واكواب الشاى على منضدة كاهن عجوز وسريره تعلوه نتيجة يومية ، واوعيته وآنيته المحطمة وخبرة حياة طويلة ومنظر القبعات التى ترتديها الفتيات اللواتى يصلحن الطريق الذى انفجر فيه أحد الألغام ، وأزياء الجنوب الذهبية والخضراء الزاهية وفى الشمال حيث تجد الألوان البنية القاتمة والملابس السوداء والجبال التى تقوم كدائرة حول الشمال . كل ذلك مناظر تترك فى النفس أثرها .

وعندما وصلت الى سايجون كنت أحسب الأيام التى تمر على فيها ، مثلى مثل الطالب عندما يعبر أيام الدراسة انتظارا للأجازة وكنت أعتقد أننى مرتبط بلندن المكان الذى ولدت وعشت فيه . أما الآن فما عدت أهتم بل أصبحت مرتبطا ارتباطا أشد بأبناء هذه البلاد وأحوال أهلها وفونج ومسكنى ودرت حول منزل المندوب السامى الفرنسي حيث يقف رجال الفرقة الأجنبية يحرسونها فى

حلاتهم البيضاء وشاراتهم الحمراء وعبرت الشارع أمام الكاتدرائية وعدت متخذا طريقي بجوار دار البوليس الفيتنامية وكان هـذا جزءا من الوطن الثاني ـ وكانت الصحف المطبوعة حديثا قد عرضت على المناضد على طول الشاطيء والبحارة يتناولون البيرة على الرصيف وهم بذلك يكونون هدفا سهلا للقنابل اليدوية وفكرت في فونج التي تكون مشغولة في مثل هذه الساعة بالمساومة على ثمن السمك في الشارع الثالث على اليسار قبل ذهابها الى محل الألبان ونسيت بيل بسهولة . ولم اذكر حتى اسمه لفونج ونحن جالسان للغداء في غرفتي المطلة على شارع كاتينات وهي ترتدي خير ملابسها احتفالا بذكرى مرور سنتين على تعارفنا .

وفي صبيحة موته لم يذكره أحدنا عندما استيقظنا من النوم ، ولقد استيقظت فونج قبلي وأعدت الشاي ، والمرء لا تعتريه الغيرة من الموتى وسهل على بذلك أن أعاود الحياة معها كما كنا قبلا وسألت فونج بصوت حاولت أن أجعله طبيعيا ونحن نفطر :

ـ هل ستبقين هنا الليلة ؟ .

ـ اني سوف أكون في حاجة الى احضار حقيبة ملابسي .

ـ لقد يكون البوليس في انتظارك هناك عند بيل . ويحسن أن آتي معك .

وكان هـذا أول مرة يرد فيها ذكر بيل .

وكان بيل يسكن شقة في « فيللا » حديثة بشارع «ديورانتين» تقوم على أحد الشوارع الرئيسية التي يشغلها الفرنسيون ويطلقون عليها أسماء قوادهم . وقد غيروا اسم شارع ديجول باسم شارع ليكليرك بعد الانقلاب الثالث في فرنسا وقد يغيرون هذا الشارع مرة أخرى باسم دي لاتوتاسيتي . ولاحظت أنه يوجد رجل بوليس يواجه « الرصيف » كل عشرين ياردة على طول الطريق المؤدي الى بيت المندوب السامي فلابد أن هناك شخصا ذا أهمية سوف يصل من أوربا بالطائرة وامام منزل بيل كان هناك عديد من رجال البوليس راكبي الموتوسيكلات وقد أوقفني أحد رجال البوليس من أهل فيتنام وفحص بطاقتي الصحفية ولم يسمح لفونج بالدخول

فدخلت وذهبت الى ضابط البوليس ، وفى حجرة بيل وجدت فيجو يغسل يديه بصابونة ويمسح يديه فى « فوطته » وكانت حلته قد لوثتها بقعة من الزيت أعتقد أنه من زيت بيل . وسألته :

ـ هل من أخبار ؟

ـ وجدنا سيارته فى الجاراج ـ وكانت خالية من الوقود ـ فلابد أنه خرج واستأجر عربة ، أو فى سيارة شخص آخر ، وقد يكون الوقود قد أفرغ من السيارة .

ـ قد يكون ذهب سائرا على قدميه .. أنت تعرف هؤلاء الأمريكيين .

فقال وهو يفكر :

ـ ان سيارتك قد أحرقت .. أليس كذلك ؟ وليس لديك سيارة جديدة .

ـ نعم ..

ـ أنها ملاحظة غير هامة .

ـ أبدا .

ـ هل لديك أية فكرة .

فقلت له :

ـ كثير من الأفكار .

ـ اذكرلى .

ـ حسنا وقد يكون قد قتل « بواسطة » رجال الكاوديست لأنه يعرف الجنرال ثى .

ـ هل يعرفه ؟

ـ انهم يقولون ذلك .. وقد يكون الجنرال ثى قد قتله لأنه

يعرف الكاوديست وقد يكون قد قتله الهاوهاو لأنه غازل عشيقات الجنرال ـ أو قد يكون قد قتله شخص يريد الاستيلاء على نقوده .
فقال فيجو :

ـ وقد يكون لسبب « بسيط » وهو الغيرة .
فقلت متابعا :

ـ وقد يكون قد قتله رجال البوليس الفرنسي لأنهم لا يحبون الاتصـــالات التي يقوم بها . هل تبحث حقيقة عن الرجال الذين قتلوه ؟ .

فقال :

ـ لا .. انني فحسب أدون مذكرة وهذا كل ما في الأمر ، لأن المسألة من أفصال الحب ، وهناك آلاف يقتلون كل سنة .
قلت :

ـ تستطيع أن تستبعدني ، فأنا لم اشترك في قتله ، لم أشترك قط ، فأنا بطبيعتي سلبي ، وحيث ان الأحوال الانسانية على ما هي عليه فندعهم يتصارعون أو يحبون أو يقتلون فأنا لا اندمج في هذا المعترك .

وزملائي من الصحفيين يسمون انفسهم مراسلين ولكني أفضل لقب مخبر صحفي فأنا أكتب ما أراه ولا اتخذ أية حركة .

وقال فيجو :
ـ ماذا تفعل هنا ؟ .
ـ لقد جئت من أجل حاجات فونج ، ورجالك لم يسمحوا لها بالدخول .
ـ دعنا نذهب لنبحث عنها .
ـ ان هذا جميل منك يا فيجو .

وكانت شقة بيل محتوية على غرفتين ومطبخ وحمام ـ وتوجهنا الى حجـرة النوم وكنت اعـرف أين تضـع فونج حقيبتها تحت السرير ـ وسـحبناها معا وكانت تحتـوى على « البـومات » صـــورها ـ وأخـــذت ملابسها القليلة من « الدولاب » : روبين

وبنطلون – والمرء يشعر بأن هذه الملابس لا تنتمى الى هذا المكان وأنها لم تمكث فيه سوى ساعات ، وفى أحد الأدراج وجدت سراويلها الثلاثة ومجموعتها من الايشاربات . وكانت الملابس كلها قليلة لا تزيد على ما يحمله المرء فى عطلة الأسبوع – وفى غرفة الجلوس كانت هناك صورة لها مع بيل – والصورة مأخوذة فى حديقة النباتات بجوار تمثال حجرى كبير لتنين – وكانت تمسك فى الصورة بحبل متصل بكلب بيل وهو كلب اسود ذو لسان قاتم – ووضعت الصورة فى الحقيبة وسألت :

– ماذا حدث للكلب ؟ .

– انه ليس هنا . ربما أخذه معه .

– قد يعود الكلب وتستطيع تحليل ما على أقدامه من التربة . فقال :

– انني لست بوليسا سريا حاذقا .

وتوجهت ناحية مكتبة بيل وتصفحت الكتب التى بها . ووجدت الكتب التالية : «تقدم الصين الشيوعية» ، «تحدى الديمقراطية» ، « مسئولية الغرب » . وهذه الكتب كما أعتقد هى مؤلفات « يورك هاردنج » والى جانب ذلك عديد من نشرات الكونجرس وكتاب لتعلم اللغة الفيتنامية وتاريخ الحرب فى الفلبين ومؤلفات شكسبير وتساءلت : « أى شىء كان يقرأ بيل لاراحة أعصابه الى جانب هذه المؤلفات الجامدة ؟ » .

ووجدت كتب قراءته الخفيفة على رف آخر : كتاب عن حياة توماس ولف ومجموعة من القصائد اسمها « انتصار الحياة » ومختارات من الشعر الأمريكى . وكان هناك كذلك كتاب عن الشطرنج وكان هذا كله لا يعد شيئا يحتاج الانسان اليه بعد عمل النهار . ولكن كانت هناك فونج . وخلف كتاب الشعر وجدت كتابا عنوانه سيكيولوجية الزواج .

وكان بيل ممن يؤمنون بضرورة الاندماج والاشتراك فى الحياة . أما مكتبه فكان عاريا . وقالت لفيجو :

ـ لقد نظفت المكتب تماما ».

ـ آه .. كان لابد من التحفظ على أوراقه من اجل الفوضية الأمريكية وانت تعلم كيف تنتشر الشائعات بسرعة ». وربما فكر احدهم فى الاستيلاء عليها وقد ختمتها ».

قال ذلك بكل وقار دون أن يبتسم ».

ـ هل وجدت شيئا خطيرا ؟ .

ـ انك لا تستطيع ان تنسب امورا خطيرة لحليف ».

ـ هل تمانع اذا اخذت احد هذه الكتب من اجل الذكرى ؟ »

فقال فيجو :

ـ سوف انظر الى الناحية الاخرى كأنى لم أرك .

واخترت كتاب « يورك هاردنج » مسئولية الغرب ، ووضعته فى الحقيبة مع ملابس فونج . وقال فيجو :

ـ الا تستطيع أن تذكر شيئا كصديق ؟ . الم يقل لك شيئا آخر مرة رأيته ؟ ».

ـ نعم ..

ـ متى كان ذلك ؟

ـ صباح امس بعد الانفجار الكبير ».

وسكت حتى تتضح معنى اجابتى لعقلى انا لا لعقله هو .. ثم سألنى :

ـ هل كنت بالخارج مساء أمس عندما مر عليك ؟ ».

ـ مر على امس ؟ ربما كنت بالخارج . وانا لا اعتقد ذلك ».

ـ ربما تحتاج الى تأشيرة خروج . وانت تعلم اننا نستطيع أن نؤخر اعطاءك اياها .

فقلت له :

ـ هل تعتقد حقيقة أننى أريد العودة الى وطنى ؟ ».

ونظر فيجو من خلال النافذة الى الليل الذى أخذ يزحف على النهار وقال بأسى :

ـ معظم الناس يعودون لوطنهم .

فقلت :

ـ انى أحب هنا . وفى الوطن توجد مشاكل .

وقال فيجو :

ـ ها هو ذا ميرد .. الملحق الاقتصادى الأمريكى ،

ـ يحسن أن أذهب ـ فربما فكر فى اقحامى أنا كذلك .

فقال فيجو بتعب :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا . فان للملحق مزعجات كثيرة يريد أن يقولها لى .

وكان الملحق الاقتصادى واقفا بجوار سيارته الباكار عندما خرجت ، وهو يحاول ايضاح شيء للسائق ، وهو رجل ممتلىء فى منتصف العمر ووجهه يلوح وكأنما لا يحتاج صاحبه الى حلاقته ونادانى قائلا :

ـ فولر .. هل تستطيع أن تشرح لهذا السائق الملعون ؟ .

وشرحت للسائق ما أراد ثم قال :

ـ ان هذا هو ما أردت شرحه له ولكنه يدعى دائما انه لا يعرف الفرنسية .

ـ ربما كانت المسألة مسألة لكنة فى نطق اللغة .

ـ لقد قضيت ثلاث سنوات فى باريس . وأن لهجتى كافية جدا بالنسبة لهؤلاء الذين من أهل فيتنام .

فقلت له :

ـ أهذا صوت الديمقراطية .

ـ ماذا تقصد ؟ .

ـ انى أعتقد أن هذا كتاب من تأليف « يورك هاردنج » .

ـ انى لا أفهمك .

ونظر بشك الى الحقيبة التى احملها وقال :

ـ ماذا تحمل فى هذه الحقيبة ؟ .

فقلت له :

ـ روجين من السراويل الحريرية البيضاء ، وروبين من الأرواب الحريرية ، وبعض الملابس الداخلية لاحدى الفتيات ـ ثلاثة أزواج منها كلها انتاج محلى ـ وليس فيها شيء من المعونة الأمريكية .

ـ هل كنت بأعلى فى الشقة ؟ .

ـ نعم ..

ـ هل سمعت الأخبار ؟ .

ـ نعم ..

ـ انه لشيء فظيع .. فظيع واعتقد أن الوزير المفوض فى غاية « الانشغال » واعتقد أنه الآن مع المندوب السامى الفرنسي وسوف يطلب مقابلة رئيس الجمهورية .

ووضع يده على ، وسألنى وقادنى بعيداً عن السيارة وقال :

ـ انك تعرف بيل جيداً فأنا أعرف والده « البروفسور هارولد » .

فقلت :

ـ من بيل ؟ .

قال :

ـ لا شك أنك سمعت عنه .

ـ لا ..

ـ انه حجة عالمى فى الأبحاث المائية . الم تر صورته على غلاف مجلة « تايم » فى الشهر الماضى ؟ .

ـ بلى .. أظن أنى أتذكر ذلك . صورة بيل متهاو فى مؤخرة الصورة ورجل يلبس منظاراً مذهب الاطار فى القدمة .

ـ انه هو .. وكان على أن أرسل له برقية فى الوطن . وذلك شيء مزعج لأنى كنت أحب هذا الشاب كابنى .

ـ أن هذا يجعلك شديد الصلة بأبيه .

فنظر لى بعينيه المبللتين بالدموع وقال :

ـ ما الذى يقلقك ؟ ان هذه ليست بطريقة للكلام عندما يموت شاب خير .

فقلت :

ـ انى لآسف . ان الموت يؤثر فى الناس بصور مختلفة . ماذا كتبت في برقيتك ؟

فأجاب بتؤدة ووقار :

ـ انى لمحزون أن أنعى وفاة ابنك وفاة جنـــدي مخلص وقد وقعه الوزير المفوض .

فقلت :

ـ موت جندى . أليس ذلك يدعو الى الحيرة ؟

ـ انى أقصد بالنسبة لأهله فى الوطن .

ـ ان البعثة الاقتصادية ليست هي الجيش . هل تحصـلون على وسام القلب القرمزى فيها ؟

فقال بصوت منخفض :

ـ لقد كان له مهمات خاصة .

فقلت :

ـ آه . لقد كنا جميعا نعتقد ذلك .

ـ انه لم يبح بشيء . هل تكلم عن شيء ؟

ـ آه ـ كلا ـ لقد كان أمريكيا هادئا جدا . وهى عبارة فيجو .

ـ هل لديك فكرة . لماذا قتلوه ؟ ومن الذى قتله ؟

وفجأة أحسست بالغضب ، فلقد سئمتهم جميعا . بمخزونهم الخاص من الكوكاكولا ومستشفياتهم المتنقلة وسياراتهم وبنـادقهم غير الحديثة جدا وقلت : نعم . لقد قتلوه لأنه كان ساذجا جدا لأنه كان شابا . وجاهلا . وسخيفا . ولأنه جعل نفسه يدخل فى دوامة ، ولم يكن لديه أية فكرة عما يدور ويحدث وقد أعطيتموه نقودا ، وكتب يورك هاردنج وقلتم له : هيا ـ الى الأمام اكسب لنـا الشرق . وعندما كان يرى قتيلا كان لا يسـتطيع حتى رؤية الجروح . لقد كان مزعجا .

فقال بصوت عتاب :

ـ انى كنت أعتقد أنك صديقه .

ـ لقد كنت صديقه . وكنت أفضل أن أراه جالسا في وطنه يقرأ جرائد الأحد ويتتبع أخبار البيسبول ، وكنت أحب ان أراه سالما مع فتاة أمريكية من أوساط الناس تنتمي الى نادى الكتب.

فتنحنح وقال :

ـ بالطبع لقد نسيت هذه المهمة السيئة الحظ ـ انني أوافقك يا فولر . لقد سلك سلوكا سيئا جيدا ـ وأنا لا أكتم عنك أني تكلمت معه طويلا عن مهمته فأنت ترى أنني كنت أعرف أباه وأمه .

فقلت له :

ـ ان فيجو ينتظر .

وتركته وسرت ولاحظ فونج لأول مرة وعندما نظرت اليه وجدته يرقبني بألم ممزوج بالامتعاض كأنه أخ أكبر لا يستطيع أن يفهم الموقف .

الفصل الثالث

كان بيل قد دعا نفسه الى ما أسماه كأسا . ولكننى أعرفه جيدا أنه لا يشرب حقيقة وخطر لى أنه يحاول أن يجعلنى أنزلق وأن الحديث كان سخرية وملهاة مقنعة بالنسبة لغرضه الحقيقى حيث أن الشائعات فى سايجون تشير الى أنه يعمل فى مهمة سرية وربما كان يعد العدة لتزويد « قوة ثالثة » بالسلاح الامريكى – وربما كانت هذه القوة هى فرقة الأسقف الموسيقية وهى كل ما تبقى له من جنوده الذين لا يدفع لهم أجورهم وكان التلغراف الذى وصل الى فى هانوى قد احتفظت به فى جيبى ولم أجد مصلحة فى ابلاغ فونج لأن ذلك سيؤدى الى افساد الأشهر القليلة الباقية بالبكاء والمنازعات وتويت ألا أذهب للحصول على تأشيرة الخروج الا فى آخر لحظة ممكنة خشية أن يكون لها قريب فى ادارة الهجرة وقلت لها : « ان بيل سيأتى فى السادسة » فقالت :

– سأذهب لمقابلة أختى .

– اننى أعتقد أنه يرغب فى رؤيتك .

– انه لا يحبنى ولا يحب عائلتى – فعندما كنت مسافرة لم يحضر مرة واحدة لرؤية أختى برغم انها كانت قد دعته لزيارتها وقد آلمها ذلك جدا .

– انك لست فى حاجة الى الخروج .

– لو كان يريد أن يرانى لكان عليه أن يدعونا الى فندق ماجستك . انه يريد أن يتكلم معك على انفراد بخصوص العمل .

– وما هو عمله ؟

– الناس يقولون : انه يستورد أشياء كثيرة .

– أى نوع من الأشياء ؟

ـ أدوية ومستحضرات طبية .

ـ ان هذه الأشياء لوحدة مكافحة التراخوما فى الشمال ـ والجمارك لا تطلع على محتويات الطرود . لأنها طرود ديبلوماسية ولكن حدث مرة غلطة اذ فتحها رجل من الجمارك وقد فصل الرجل لذلك . وهدد السكرتير الأول بالمفوضية الأمريكية بوقف كل الواردات .

ـ وماذا كان فى الطرد ؟

ـ بلاستيك .

وقلت بكسل :

ـ ولماذا يريدون البلاستيك ؟

وعندما رحلت فونج كتبت الى انجلترا ـ وكان أحد مراسلى رويتر مسافرا الى هونج كونج بعد أيام ويستطيع أن يرسل خطابى من هناك ـ وكنت أعلم أن أعتراضى لا أمل فى نجاحه ولكنى لم أكن أريد أن ألوم نفسى لعدم اتخاذى كل وسيلة ممكنة لالغاء النقل . وكتبت الى رئيس التحرير أن هذا الوقت غير مناسب لتغيير مراسلهم ـ فالجنرال لاتردى تاسنى كان على شفا الموت فى باريس والفرنسيون على وشك الانسحاب من (هوى بنه) والشمال لم يكن فى يوم من الأيام فى خطر مماثل ـ وأنا لست صالحا لكى أكون محررا للشئون الخارجية فما أنا الا مراقب للحوادث وليس لى رأى صريح فى الأمور ـ وفى الصفحة الأخيرة طلبت منه على أساس المصلحة الشخصية الا يصر على نقلى برغم علمى أن العاطفة الانسانية لن يكون لها أثر عند أولئك المديرين للجريدة الجالسين أمام مكاتبهم فى لندن وأنهم يضعون مصلحة الجريدة ـ والموقف يتطلب ذلك ـ أمام كل اعتبار فردى . وكتبت له أقول « لأسباب شخصية أعتبر نفسى غير سعيد بالمرة لنقلى من فيتنام ـ وأنا لا أعتقد أنى سوف أقوم بعملى على خير ما يرام فى انجلترا حيث توجد المشاكل المالية والمشاكل العائلية ولو كان فى استطاعتى من الناحية المالية أن أستقيل لفضلت ذلك على العودة الى المملكة المتحدة . وأنا أذكر ذلك لاظهار قوة معارضتى للنقل . ولا أعتقد

أنكم وجدتموني مراسلا غير ناجح وهذه هي أول خدمة أطلبها منكم ثم خطرت الى سفالى عن معركة « فات ديم » حتى أستطيع أن أرسله من هونج كونج ولا يستطيع الفرنسيون أن يحتجوا الآن .. فاقد رفع الحصار ومن الممكن تصوير الهزيمة على أنها انتصار ثم مزقت الصفحة الأخيرة من كتابتي الى رئيس التحرير لعلمي بعدم جدواها « فالاسباب الشخصية » سوف تكون موضع سخرية خبيثة فالمعروف أن كل مراسل أجنبي له عشيقته من أهل البلاد وسوف يتخذ رئيس التحرير من ذلك مادة للسخرية مع سكرتير التحرير الذي سيحمل القصة معه الى منزله حيث يقيم في « فيللا » في « فالأسباب الشخصية » سوف تكون موضع سخرية خبيثة — منذ تعرفه عليها في « جلاسجو » وكنت أستطيع أن أتخيل صورة المنزل الذي لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلب أصحابه . « فالأسباب الشخصية » يمكن أن تكون محلا لسخرية أنا في غنى عنها .

وقرع الباب ففتحته ووجدت بيل وكلبه الأسود يتقدمه ونظر بيل من فوق كتفي ووجد الغرفة خالية وقلت :

— أنا بمفردي وفونج مع أختها .

وتضرج وجهه ولاحظت أنه قد ارتدى قميصا « مشجرا » من أقمصة هاواي برغم أنه كان قميصا متحفظا بعض الشيء في لونه وتصميمه — ودهشت . هل أفهموه ان له نشاطا معاديا لأمريكا ؟ « لا . بالطبع » . وقلت له :

— هل لك في كأس ؟

— شكرا .. قدح من البيرة .

— آسف — ليس لدينا ثلاجة . لقد أرسلنا في طلب الثلج — ما رأيك في كأس من الويسكي ؟ .

— كأس صغيرة — ان لم يكن مانع . فأنا لست متعودا المشروبات القوية .

— بالثلج .

— مع كثير من الصودا ان لم تكن تشكو من قلتها .

وقلت :



ـ أنا لم أرك منذ مقابلتنا فى « فات ديم » .

ـ ألم يصلك خطابى ـ يا توماس ؟

وكان عندما يستخدم اسمى المسيحى فهذا معناه اعلان منه أنه ليس فى روح طيبة وأنه ليس لديه ما يخفيه . وأنه هنا لكى يستحوذ على فونج . ولاحظت أن حلاقة شعره قد تغيرت ، وقلت له

ـ لقد تسلمت خطابك وأعتقد أنه من المفـــروض أن اطرحك أرضا .

فقال :

ـ بالطبع . فلديك كل الحق يا توماس . ولكنى كنت ملاكما فى الكلية وأنا أكثر منك شبابا بكثير .

ـ انها لن تكون حركة ناجحة منى أليس كذلك ؟

ـ أنت تعلم ياتوماس . وأنا أعتقد أنك تشعر بالشعور نفسه . انني لا أحب مناقشة مسألة فونج بغير حضورها . وأعتقد انه يجب أن تكون موجودة .

ـ حسنا . اذن ما الذى سوف تناقشه ؟ البلاستيك ؟

ولم أكن أقصد مفاجأته . وقال :

ـ هل تعرف ذلك ؟

ـ لقد قالت لى فونج .

ـ يمكنك أن تتأكد أن هذا معروف فى المدينة كلها . وما أهمية ذلك ؟ أهل تنتوى الدخول فى تجارة لعب الأطفال ؟ نحن لا نحب أن نعرف تفاصيل المعونة التى ترسلها ، وأنت تعـــــرف أحوال الكونجرس ، هذا بالاضافة الى الزيارات التى يقوم بها أعضـــــاء مجلس الشيوخ ، ولدينا كثير من المتاعب بخصوص فرقة مكافحـــة التراخوما لأنهم كانوا يســــتخدمون نوعا من الدواء بدلا من نوع آخر .

فقلت له :

ـ ومع ذلك فمازلت لا أفهم مسألة البلاستك .

وجلس تلبه على الأرض ناظرا الى محتويات الغرفة وهو يلهث ولسانه يبدو كانه « كعكة مشوية » وقال بيل :

ـ اوه . أنت تعلم أننا نريد أن نساعد الصناعات المحلية على الوقوف على قدميها ، وعلينا أن نكون حذرين من ناحية الفرنسيين فهم يريدون أن نشترى كل شيء من فرنسا .

ـ أنا لا ألومهم . فالانفاق على الحرب يحتاج الى أموال .

فقال :

ـ هل تحب الكلاب ؟

فقلت :

ـ لا .

ـ كنت أعتقد أن البريطانيين من المحبين الكبار للكلاب .

ـ نحن كذلك نعتقد أن الأمريكان محبون للدولار ـ ولكن هناك بعض الشواذ عن القاعدة .

ـ انى لا أعرف كيف يمكن أن أكون بدون الكلب « ديوك » فأنت تعرف أنى أشعر أحيانا بوحدة قاتلة .

ـ انك لديك الكثير من الرفقاء فى الفرع الذى تعمل فيه .

ـ ان أول كلب ملكته كان يسمى « برنس » وسميته باسم « الأمير الأسود » . أنت تعرفه . انه ذلك الأمير ...

فقاطعته قائلا :

ـ الذى نقل كل النساء والأطفال الى « ليموج »

ـ انا لا أذكر ذلك .

ـ ان كتب التاريخ قد ذكرتها .

ورأيت كثيرا من المرات هذه النظرة المتأملة المملوءة بخيبة الأمل تلمس عينيه عندما لا تتفق الحقيقة أو تتمشى مع المثل

الرومانتيكية التي يتمسك بها وعندما ينزل شخص يحبـه الى مستوى أقل من المستوى الذي وضعه هوفيه . وتذكرت أنني قد عرفت « ليورك هاردنج » غلطة كبيرة عن حقيقة من الحقائق وتألم بيل وكان على أن أعزيه وقلت له حينئذ : « أن من طبيعـة البشر أن يخطئوا » فضحك بعصبية وقال : « ربما تفكر فى أنى مغفـل ولكن لقد كنت أظن أنه غير عرضة للخطأ . ولقد أحببه أبى كثيرا من المدة الأولى التى قابله فيهـا وأبى من النـاس الذين يصعب ارضاؤهم » .

وكان الكلب الأسود الكبير المسمى « ديوك » قد وجد أنه لهث ليتعود جو الغرفة وأخذ يعبث فيها وقلت لبيل : « هل لك أن تدعو كلبك الى السكون ؟ » فقال : « أوه . أنا آسف جدا . ديوك . ديوك ـ اجلس هادئا ـ ديوك » وجلس ديوك وأخذ يلحس جسمه بصوت مسموع ـ وملأت الكئوس وتعمدت فى أثناء مرورى أن أضايق الكلب وسكت الكلب ولكن لمدة « بسيطة » فقد أخذ يحك جلده وقال بيل : « أن ديوك فى غاية الذكاء » .

ـ وما الذى حدث لبرنس ؟

ـ لقد دهمته سيارة .

ـ هل تألمت ؟

ـ أوه . لقد حزنت كثيرا . فانه كان يعنى شيئا كثيرا بالنسبة لى ولكن على المرء أن يكون عاقلا ـ فما من شىء يمكننا ارجاعه .

ـ ولو فقدت فونج هل تكون عاقلا ؟

ـ أوه . نعم أرجو ذلك ـ وأنت ؟

ـ انى أشك فى ذلك ـ ربما أصبح مجنـونا ـ هل فكرت فى ذلك يا بيل ؟

ـ كنت أتمنى أن تناديني « الدب » يا « توماس » .

ـ لا . أفضل ألا أناديك بذلك الاسم ـ فان الاسم « بيل » له معنى خاص . هل فكرت فى الأمر ؟

ـ بالطبع أنا لم أفكر فى فقدها . وانك أحسن فرد مستقيم رأيته . وكلما تذكرت كيف سلكت عندما اقتحمت عليك الغرفة فى ...

ـ أنا اتذكر أننى كنت أفكر قبل أن أنام فى تلك الليلة كم يكون الأمر مريحا لو حدث هجوم وقتلت أنت فيه . فتموت ميتة بطل .

ـ لا تسخر منى يا توماس . أبدو لك غبيا بعض الشيء ولكنى أعرفك عندما تريد أن تمزح .

ـ أنا لا امزح .

فقال :

ـ أنا أعرف أنك لو تجردت من عواطفك فانك تريد لها الخير .

وهنا سمعت صوت خطوات فونج ـ وكنت أتمنى أن يكون قد رحل قبل أن تعود هى ـ وسمع صوت مشيتها وعرفها وقال :

ـ هاهى ذى .

برغم أنه لم يكن لديه سوى ليلة واحدة ليتعرف على طريقة خطوها ، وحتى الكلب وقف الى جوار الباب الذى تركته مفتوحة لترطيب الجو ، وكان الكلب قد « اعتبرها » واحدة من عائلة بيل وأنا شخص متطفل وقالت فونج :

ـ ان اختى لم أجدها .

ونظرت الى بيل بتحفظ ، وتعجبت هل هى تذكر الحقيقة أو أن أختها طلبت منها العودة بسرعة ؟

وقلت :

ـ هل تذكرين مستر بيل ؟

فقالت بأدب :

ـ لى الشرف .

وقال لها ووجهه يتضرج بالحمرة :

ـ أنا فى غاية السرور لرؤيتك ثانية .

فقالت :

ـ ماذا يقول ؟

فقلت :

ـ ان لغتها الانجليزية ليست جيدة .

فقال بيل :

ـ أنا أخشى أن تكون فرنسيتى أكثر ضعفا ، وأنا أدرس الآن وسوف أفهم لو أن مس فونج تكلمت ببطء .

فقلت :

ـ سوف أعمل كمترجم . فان اللهجة المحلية تحتاج الى وقت لفهمها والآن ماذا تريد أن تقول اجلس يا فونج . ان مستر بيل قد حضر « خصيصا » لرؤيتك . هل أنت متأكد يا بيل أنك لا تريد أن أخرج واترككما معا .

فقال :

ـ أنا أريد أن تسمع كل ما سوف أقوله . والا لم يكن ذلك عدلا .

ـ حسنا هات ما عندك .

وقال بوقار كأنه قد تمرن على قول ما يقوله انه يحب ويحترم فونج كثيرا ، وانه شعر بذلك من تلك الليلة التى رقص فيها معها ، وترجمت أقواله بعناية وجلست فونج ساكنة ويداها فى حجرها كما لو كانت تستمع الى رواية فى السينما وقال بيل :

ـ هل فهمت هى ما قلته ؟

ـ بقدر ما أعرف . هل تحب أن أضيف شيئا من الحرارة الى حديثك ؟

ـ أوه . لا . ترجم فحسب أنا لا أريد أن اجذب حبها عن طريق العاطفة .

ـ أفهم ما تقول .

فقال :

ـ قل لها انى أريد أن أتزوجها .

وقلت لها ذلك فقال :

ـ وماذا قالت ؟

ـ قالت : هل أنت جاد فى طلبك ؟ . فقلت لهـــا : انك من الصنف الجاد .

فقال :

ـ أعتقد أن هذا موقف محرج . أن أطلب منـك بالذات أن تترجم .

ـ نعم محرج .

ـ وأنت تبدو طبيعيا ـ وعلى كل فأنت أحسن صديق لى .

ـ انها لطيبة منك أن تقول ذلك .

ـ ليس هناك شـــخص أتوجه اليه فى وقت المتاعب سواك . وأعتقد أن حبك للفتاة التى أعشقها هو نوع من المتاعب .

ـ بالطبع . وكنت أتمنى أن يكون حبيبها شخصا آخر سواك يا توماس .

ـ حسنا . ماذا أقول لها بعد ذلك . هل أقول لهـــا : انك لا تستطيع العيش بدونها .

ـ لا . هذا كلام عاطفى جدا . وهـــو ليس بصريح كذلك . حقيقة أنه على ، ان لم تتزوجنى ، أن أرحل بالطبع ولـــكن المرء يتعود التغلب على كل شىء.

فقلت له :

ـ هل من الممكن ان أقول كلمة بالنسبة لنفسى .

قال :

ـ لا . بالطبع لا . ان هذا من العدل يا توماس .

وقلت :

ـ حسنا يا فونج هل تريدين أن تتركيني من أجله . انه سوف يتزوجك وأنا لا استطيع وأنت تعرفين السبب .

فقالت :

ـ هل انت مسافر ؟

وفكرت في خطاب رئيس التحرير في جيبي وقلت :

ـ لا .

ـ ألن تسافر أبدا ؟

ـ كيف يمكن أن يعد المرء بذلك ؟ ان بيل نفسه لا يستطيع أن يعد بذلك والزواج قد تنفصم عراه بسرعة .

فقالت :

ـ أنا لا أريد أن أتركك .

ولكن لهجتها لم تكن صريحة حيث انها كانت تحمـ...ـل معنى « ولكن .. » وقال بيل :

ـ انى أعتقد أنه على أن أضع كل أوراقى على المـائدة ـ فأنا لست غنيا لكن عندما يموت أبى سأرث نحو خمسين ألف دولار . وأنا صحتى طيبة وقد كشف على طبيب منذ شهرين . وسوف أطلعها على كشف ضغط الدم .

فقلت :

ـ أنا لا أعرف كيف أترجم هذا الكلام . وما الداعى له ؟ هل هذه هي طريقة الحب في أمريكا . أرقام دخلك ، وعـدد ضربات قلبك ؟

قال :

ـ أنا لا أعرف ـ فلم يسبق لى أن تقدمت بمثل هذا العرض ـ وربما في الوطن كانت أمي تستشير أمها .

ـ تستشيرها عن عدد ضربات قلبك ؟

قال :

ـ أتسخر منى يا توماس ؟ أنا أعتقد أنى « موضة » قديمة ، وأنت تعرف أني ضائع فى مثل هذا الموقف .

ـ وكذلك أنا . ألا تؤمن معى بعدم جدوى هذه المناقشة ؟ ثم ترمى الزهر ليكسبها أحدنا .

ـ الآن تدعى القوة يا توماس . وأنا أعلم أنك تحبها بطريقتك بمثل القوة التى أحبها أنا بها .

ـ حسنا . واصل كلامك يا بيل .

ـ قل لها : اننى لا أتوقع منها أن تحبنى على الفور . فسوف يأتى الحب بمرور الزمن بل قل لها : ان ما أعرضه عليها هو الاحترام والأمان . ان هذا لا يبدو مثيرا . ولكنه ربمـــا كان أحسن من العواطف .

فقلت :

ـ انها تستطيع أن تحصل على العاطفة باستمرار وذلك مع سائقك عندما تذهب الى المكتب .

وتضرج وجهه ـ ووقف بصعوبة على قدميه وقال :

ـ هذه نكتة قذرة ولا أحب أن تهان فونج وليس لك الحق ...

ـ انها ليست زوجتك بعد . فلماذا تغضب ؟ ماذا تستطيع أن تقدمه لها . مئتى دولار عندما تتركها وتسافر الى انجلترا أو هل ستبيعها مع الأثاث ؟

ـ ان الأثاث ليس ملكى .

قال :

ـ وكذلك هى .. فونج هل تتزوجيننى ؟

ـ وماذا عن ضغط الدم وشهادة الفحص الطبى ، وســوف تحتاج الى شهادة لها بذلك . وقد تحتاج الى شهادة خاصــة لى وكذلك سوف تحتاج الى شهادة بحسن طالعها . كلا فان هــذه عادة هندية .

ـ هل تتزوجينى ؟

فقلت :

ـ قل لها بالفرنسية . فانى ملعون لو ترجمت لك بعد ذلك.
ووقفت على قدمى فزمجر الكلب وقد جعلنى ذلك غضوبا . وقلت له :

ـ أطلب من كلبك الملعون أن يسكت . ان هذا هو بيتى وليس بيته .

فكرر سؤاله لها :

ـ هل تتزوجيننى ؟

وخطوت خطوة نحو فونج وزمجر الكلب ثانية وقلت لفونج :

ـ قولى له لابد أن يذهب ويأخذ كلبه معه .

وقال بيل :

ـ تعالى معى الآن .

وقال بالفرنسية معى . فقالت فونج :

ـ لا . لا .

وكانت المشكلة « بسيطة » يمكن حلها بكلمة من حرفين «لا» وشعرت براحة كبيرة ووقف بيل وفمه مفتوح قليلا وعلى وجهه تعبير ينم عن الحيرة وقال :

ـ لقد قالت « لا » .

فقلت :

ـ انها تعرف الى ذلك الحد من الانجليزية .

وأردت أن أضحك لقد جعلنا من أنفسنا مغفلين . وقلت :

ـ اجلس وتناول كأسا أخرى يا بيل .

قال :

ـ أعتقد أنه على أن اذهب .

ـ تناول كأسا واحدة .

فتمتم :

ـ يجب الا أشرب كل ما لديك من ويسكى .

ـ انى أحصل على كل ما أريده من المفوضية .

وسمرت نحو المائدة فكشر الكلب عن أنيابه وقال بيل بغضب ؟
ــ اهدأ يا ديوك ــ كن مؤدبا .
ومسح العرق الذى تصبب على جبهته وقال :
ــ اننى فى غاية الأسف يا توماس لو كنت قلت كلاما لم يكن لى أن أقوله فأنا لا أدرى ما الذى حدث لى .
وتناول الكأس وقال :
ــ ان الفائز هو الأحسن . « فقط » أرجو ألا تتركها ياتوماس.
وقلت له :
ــ بالطبع انا لن أتركها .
وقالت لى فونج :
ــ هل تحب أن يدخن الفليون ؟
وسألته :
ــ هل تحب أن تدخن الفليون ؟
ــ لا. أشكرك سأشرب تلك الكأس ثم أنصرف. وآسف بخصوص أن أقول لهما انى راحل .. »
ديوك « فانه هادىء بطبعه عادة »
ــ ابق حتى نتعشى معا .
ــ انا أفكر فى أن أخلو بنفسى أن لم يكن لديك مانع .
وابتسم ابتسامة غير موثوق منها وقال :
ــ أعتقد أننا سلكنا سلوكا غريبا . وانى أتمنى أن تتزوجها يا توماس .
فقلت :
ــ هل تريد ذلك حقيقة .
قال :
ــ نعم . منذ رأيت ذلك المنزل ذا الخمسمائة الفتاة فمن ذلك التاريخ وأنا خائف من أجلها .

وشرب كأس الويسكى الذى لم يعتده بسرعة غير ناظر الى فونج . وعندما ودعنا لم يلمس حتى يدها بل حنى لها رأسه بطريقة فيها الخجل . ولاحظت كيف تابعته عيناها حتى الباب . وعندما اقتربت من المرآة لاحظت أن الزرار الأعلى من «البنطلون» فى غير مكانه نتيجة لظهور « كرش » وفى خارج الباب قال بيل :

ـ انى أعد بأنى لن أراها يا توماس • وأنت لن تجعل ما حدث يؤثر فى الصداقة بيننا • وسوف أطلب النقل عندما أنهى خدمتى ••

ـ ومتى يكون ذلك •

ـ فى حوالى سنتين •

وعدت الى الغرفة وفكرت « وما الفائدة ؟ . وكان أحرى بى أن أقول لهما انى راحل ••

وقالت فونج :

ـ هل أعد لك الشراب ؟•

ـ نعم • بعد لحظة فسوف أكتب خطابا •

وكان هو الخطاب الثانى الذى كان على أن اكتبه فى ذلك اليوم • ولم أمزق منه شيئا ـ برغم يأسى من فائدته ـ فقد كتبت فيه ما يلى : « عزيزتى هيلين • انى عائد الى انجلترا فى أبريل القادم لأشغل وظيفة المحرر الخارجى • وتستطيعين أن تتخيلى أنى غير سعيد بهذا • فانجلترا بالنسبة لى هى رمز فشلى • وكنت أنوى أن يدوم زواجنا • وحتى يومنا هذا فانى غير واثق مما حدث فلقد حاول كلانا اصلاح الخطأ وأعتقد ان عدم نجاحنا يرجع الى سوء خلقى وأنا أعرف كم أكون قاسيا ورديئا فى سلوكى • والآن أعتقد أن أخلاقى قد تغيرت والسبب يرجع فى ذلك الى اقامتى فى الشرق • وأخلاقى لم تتحسن وربما يرجع ذلك « ببساطة » الى أنى قد تقدمت فى العمر خمس سنوات وفى نهاية العمر تبدو الخمس سنوات كجزء مما سيكون عليه الباقى • ولقد كنت كريمة

جدا معي بل لم تلوميني مرة واحدة منذ انفصالنا . فهل أنتظر منك أن تكوني أكثر كرما . فأنا أعلم قبل زواجنا انه لن يكون هناك طلاق . وقد قبلت المخاطرة وليس لدى ما أشكو منه وفي الوقت نفسه فاني أطلب منك ذلك الطلب الآن »

ونادت على فونج من السرير قائلة انها قد أعدت الطاولة الخاصة بأدوات الشراب وقلت لها :

ـ لحظة واحدة .

وتابعت كتابة الخطاب : « وكنت أستطيع أن أقول ان طلبي هذا من أجل مصلحة شخص آخر . وبذلك أجعله أكثر احتراما ولكن الأمر ليس كذلك . وكنا قد تواعدنا انا وانت الا يكذب بعضنا على بعض وأقول لك اني احب فتاة حبا جما . وقد عشنا معا مدة سنتين . وكانت في منتهى الاخلاص لي . واعتقد أني غير ضروري بالنسبة لها . فلو تركتها فانها على ما أعتقد ستحزن حزنا قليلا ولكن لن تحدث مأساة . فسوف تتزوج شخصا آخر ويكون لها عائلة . وهذه حماقة مني .. أن أقول لك ذلك . ولكن حيث انني كنت صادقا معك حتى الآن فسوف تصدقينني عندما أقول لك : ان تركي لها بالنسبة لي سوف يكون « البداية » لموتي . وأنا لا أسألك أن تكوني عاقلة . فالمنطق والعقل كله في جانبك . ولا أسألك كذلك أن تكوني رحيمة فكلمة الرحمة كبيرة جدا بالنسبة لظروفي وعلى كل فأنا لا أستحق الرحمة وأعتقد أن ما أطلبه منك أن تستشعري في قلبك المحبة وأن تتصرفي بسرعة قبل أن يكون لديك الوقت الكافي للتفكير . وأعلم أن ذلك ممكن وسهل عن طريق التليفون أو عبر ثمانية آلاف ميل لو أنك أرسلت لي برقية تقولين فيها : « اني أوافق » .

وعندما أنهيت خطابي كنت أشعر كما لو كنت قد قطعت مسافة طويلة وكنت تحت « توتر » عنيف فاستلقيت على السرير على حين أخذت فونج تعد الشراب وقلت لها :

ـ انه شاب •
قالت :
ـ من ؟
قلت :
ـ بيل •
ـ ان هذا ليس مهماً الى هذا الحد •
فقلت :
ـ اني أرغب في أن أتزوجك لو استطعت يا فونج •
ـ أنا أعتقد ذلك • غير أن أختي لا تصدقه •
فقلت :
ـ لقد كتبت لزوجتي توا خطابا أسألها فيه الطلاق ـ ولم أطلب منها ذلك قبل الآن وهناك فرصة لدينا •
ـ فرصة كبيرة ؟
ـ لا • انها فرصة صغيرة •
ـ لا تهتم • اشرب •
وسألتها :
ـ هل كانت أختك موجودة بالمنزل حقيقة يا فونج ؟
فوضعت الغليون على الطاولة ، وقالت :
ـ ولكنك لن تسافر •
فقلت :
ـ لو رفضت أن أذهب • كيف يمكننا أن نعيش •
ـ أنا مستعدة لأن أذهب معك ـ فأنا أحب أن أرى لندن •
قلت :
ـ ان ذلك سيكون غير مريح بالنسبة لك • لو عشنا هناك معا دون زواج •
ـ ولكن ربما وافقت زوجتك على الطلاق •
فقلت :

ـ ربما .

فقالت :

ـ سوف اذهب معك على كل حال .

وكانت تعنى ما تقول ورفعت الغليون وقالت :

ـ هل هناك ناطحات سحاب فى لندن ؟

وشعرت بحبى لها من سذاجة سؤالها ، فقد تكذب على أدبا منها أو لخوفها منى أو لمجرد أن تنتفع ولكن لم يكن لديهـا الذكاء الكافي لاخفاء كذبها وقلت لها :

ـ لا . اذا أردت أن تشاهدى ناطحات السحاب فعليــك أن تذهبى لأمريكا .

فنظرت الي نظرة سريعة من فوق الكأس التى في يدها وشعرت بغلطتها . وأخذت تتكلم وهى تعد الملابس التى سوف ترتديها عند ذهابها الي لندن . كما تكلمنا عن المترو تحت الأرض الذى قرأت عنه في احدى الروايات و « الأتوبيسات » ذات « الطابقين » . وهل سنسافر بالطائرة أو نأخذ الباخرة وكذلك تكلمت عن تمثــال الحرية فقلت لها :

ـ يا فونج . ان تمثال الحرية أمريكى .

الفصـــل الرابع

بعد مرض طويل ألزمني الفراش مدة في المستشفى صعدت في السلم ببطء الى مسكني في شارع كاتينات وأنا أتوقف وأستريح على أول « بسطة » منه . وأخذت النسوة يثرثرن «كعادتهن» وهن جالسات على الأرض . وساد الصمت عندما مرت وساءلت نفسي: ترى ماذا كن يقلن لي لو كنت أعرف لغتهن ؟ أسوف يخبرنني عن الأحداث التي مرت في أثناء وجودي في المستشفى . ولقد كنت افقدت مفاتيحي بين البرج والحقول ولكني أرسلت خطابا الى فونج، ولابد أنها تسلمته لو كانت مازالت موجودة ، فأنا لم أسمع أي أخبار عنها في المستشفى ولكنها كانت تكتب الفرنسية بصعوبة وأنا لا أستطيع قراءة الفيتنامية .

وقرعت الباب وفتح على التو وبدا كل شيء كما تعودته. ورقبتها بدقة وهي تسألني عن حالي ولمست ساقي الجريحة وأعطتني كتفها لكي أستند عليها كما لو كان المرء يستطيع أن يعتمد وهو آمن على الذراع الغض وقلت :

ـ أنا سعيد بعودتي الى المنزل .

وقالت لي :

ـ انها افتقدتني .

وهو بالطبع ما كنت أريد أن أسمعه وهي متعودة قول ما أحب أن أسمعه كأنها حوذي يجيب عن أسئلة الراكب الا ما قد يبدو منه عن غير قصد . والآن انتظرت حدوث ذلك وسألتها :

ـ أسليت نفسك ؟

فقالت :

ـ انى كنت أرى أختى دائما . فلقد حصلت على وظيفة مع الأمريكيين .

ـ هل ساعدها بيل ؟

ـ ليس بيل . انه جو .

ـ من هو جو ؟.

ـ انك تعرفه فهو الملحق الاقتصادى .

ـ آه بالطبع ـ جو .

فقد كان جو من السهل نسيانه . وحتى يومنا هذا لا أستطيع تذكر شيء عنه عدا سمنته وذقنه الحليق المعطر وضحكته العالية واسمه وكل مميزات شكله عدا ما تقدم لا أذكرها وهناك بعض الرجال يختصرون دائما أسماءهم .

وبمعاونة فونج استلقيت على السرير . وسألتها :

ـ هل شاهدت أية روايات سينمائية ؟

فقالت :

ـ أن هناك فيلما سينمائيا فى سينما كاتينات .

وشرعت على الفور تقص على قصة الفيلم فى اسهاب وتفصيل على حين شغلت أنا بالنظر الى جوانب الحجرة عسى أن أرى مظروفا أبيض يمثل التلغراف الذى أنتظره . وربما كان المظروف على المنضدة بجوار الآلة الكاتبة أو على « التسريحة » . وربما وضعته زيادة فى السلامة داخل « الدولاب » فى أحد الأدراج حيث تحتفظ بمجموعتها من « الايشاربات » وواصلت الكلام عن الفيلم ..

ثم قالت :

ـ لقد كان الفيلم مضحكا .

وقلت لها :

ـ قبلينى يا فونج ؟

فاستجابت على الفور ولم يكن لديها شيء من خداع النساء وكانت تفعل على الفور ما أطلبه منها . وهكذا بكل « بساطة » كانت مستعدة لأن تبادلني الحب وسألتها :

ـ هل جاءني خطاب ؟

فقالت :

ـ نعم .

فقلت :

ـ لماذا لا تعطيني اياه .

فقالت :

ـ انك لا تستطيع أن تعمل وعليك أن تستريح .

ـ ربما كان الخطاب ليس له دخل بالعمل .

وأعطتني الخطاب ورأيت انه قد فض قبل ذلك وقرأت :«نريد تلغرافا من اربعمائة كلمة عن الجنرال لاتر وتأثير رحيله على الموقف العسكري والسياسي » وقلت لها :

ـ نعم انه بخصوص العمل ـ كيف عرفت ؟ ولماذا قرأته ؟

قالت :

ـ لقد ظننت أنه من زوجتك وكنت آمل أنه يحمل أخبارا طيبة .

فسألتها :

ـ من الذي ترجم الخطاب لك ؟

ـ لقد أخذته الى أختي .

فقلت :

ـ لو كانت الأخبار سيئة هل كنت تتركينني يا فونج ؟

فمسحت بيدها على صدري لكي تبعث في الثقة وهي لم تتحقق أن ما أريد منها في هذا الوقت هو الكلمات مهما كانت غير صادقة .
وقالت :

ـ هل تريد أن تدخن ؟ أن هناك خطابا لك وأعتقد أنه من زوجتك .

فقلت :

ـ هل فتحت ذلك أيضا ؟

ـ أنا لا أطلع على خطاباتك ـ أما التلغرافات فهى للجميع . فان الكتبة فى مكتب التلغراف يقرءونها .

وكان المظروف الوارد به خطاب زوجتى قد وضعته بين « الايشاربات » وقامت وناولتنى اياه . وتعرفت على الخط وأردت أن أسألها : لو كانت الأخبار سيئة ماذا ستفعل ؟ لأنى أعلم أن الأخبار من زوجتى لن تكون الا سيئة . وارسالها الخطاب يؤكد ذلك فلو أرسلت لى تلغرافا لدل ذلك على نوبة مفاجئة من الكرم . أما ارسال الخطاب فمعناه الشرح وسرد المبررات .

وقالت فونج :

ـ ما الذى أنت خائف منه ؟

وقلت لنفسى :

ـ انى خائف من الوحدة ومن نادى الصحفيين ـ والعزلة ومن بيل وقلت لها :

ـ جهزى لى كأسا من البراندى والصودا .

ونظرت الى الخطاب وقرأت فى أوله « عزيزى توماس » وفى آخره « المحبة . هيلين » وانتظرت البراندى والصودا وقلت : انه منها » وقبل أن أبدأ فى قراءته فكرت فى . . هل أكذب أو أقول لفونج الحقيقة . وكان الخطاب كالآتى : « عزيزى توماس . أنا لم أدهش عندما تلقيت خطابك وعرفت أنك لا تعيش بمفردك . فأنت لست بالرجل الذى يستطيع ذلك هل أنت الذى يستطيع أن يعيش بمفرده مدة طويلة ؟ أنت تلتقط النساء كما يلتقط رداؤك التراب وربما كنت أشعر بشىء من الشفقة بالنسبة لك لولا شعورى بأنه فى امكانك أن تجد ما يسليك بسهولة عند وصولك الى لندن .

وأنا لا أعتقد انك سوف تصدقنى . ولكن الذى جعلنى اتمهل ولا ارسل لك تلغرافا فيه كلمة « لا » هو تفكيرى فى الفتاة المسكينة التى تعيش معك فنحن أكثر منك أهمية فى الموضوع » .

وتناولت جرعة من البراندى .

وقالت فونج :

ـ هل الأخبار سيئة ؟

فقلت :

ـ شديدة بعض الشىء . ولكنها محققة .

وقرأت باقى الخطاب :

« انى كنت دائما أعتقد أنك تحب « آن » أكثر من أية واحدة فينا حتى جمعت متاعك ورحلت . وأنت الآن يبـــدو أنك ترسم خطتك لترك فتاة أخرى واستطيع أن أقول : انه من ثنايا خطاباتك لم تكن تتوقع منى ردا مناسبا . لقد كتبت تقول : « انك فعلت ما فى وسعك » ألم تفكر أنت فى ذلك ؟ وما الذى كنت تفعله لو ارسلت لك برقية أقول فيها « نعم » ؟ هل كنت ستتزوجها وأنت لم تقل لى اسمها وربما تخبرنى عن اسمها ؟ . وأعتقد أنك مثل بقيتنا قد تقدمت فى السن ولا تحب أن تعيش بمفردك وأنا نفسى أشـــعر بالوحدة القاتلة أحيانا . وأعتقـــد أن آن قد وجدت صديقا آخر ولكنك تركتها فى الوقت المناسب » .

وقلت لنفسي : لقد أصابت الجرح القديم بالضبط . وشربت جرعة من البراندى وقالت فونج :

ـ دعنى أعد لك شرابا مرة أخرى .

وقلت لها :

ـ افعلى . أفعلى اى شىء .

وتابعت القراءة :

« ان هناك سببا واحدا يجعلنى أقول لك « لا » ولا داعى الكلام عن السبب الدينى لأنك لم تعتقد أو تفهم هذه النـــــاحية قط .

فالزواج لا يمنعك من ترك امرأة . هلّ هو ؟ بلّ فحسب يؤخر الذى سيحدث . وسوف يكون الأمر غير عادل بالمرة لهذه الفتاة التى تعيش معها لو بقيت معها مدة مثل المدة التى قضيتها معى ـ وسوف تأتى بها معك الى لندن وستشعر بأنها غريبة وعندما تتركها ينتابها الخوف وأنا أعتقد أنها لا تعرف حتى كيف تستعمل الشوكة والسكين . وأنا قاسية فى الكلام لأنى أريد مصلحتها هى ولكن يا عزيزى توماس أنا أفكر فيك كذلك »

وأحسست بالمرض . فلقد مر وقت طويل منذ تلقيت خطابا من زوجتى ولقد دفعتها الى كتابة هذا وكنت أشعر بألمها فى كل سطر منه وكان ألمها يحرك ألمى فنحن قد عدنا الى النظام القديم من ايلام كل منا للآخر .

وكنت مسرورا لمهاجمة زوجتى لى ثانية . فلقد نسيت آلامها مدة طويلة وكان هذا هو الارضاء الوحيد لها .

وقالت فونج :

ـ هل ستتركك لتتزوجنى ؟

ـ أنا لم أعرف بعد .

فقالت :

ـ ألم تقل فى خطابها ؟

فأجبتها :

ـ لو قالت ذلك فانها تقوله ببطء شديد .

وفكرت . لم يشعر الانسان بالكبر عندما يجد نفسه مشغولا من جانبين ؟ . ان الحروب الحقيقية أكثر براءة من هذه الحرب ومدافع المورتار لا تنزل أضرارا أكثر من هذه الأضرار . وواصلت القراءة :

« ولو استجبت ضد كل مشاعرى وقلت : « نعم » فهل يكون ذلك حسنا بالنسبة لك . فلقد ذكرت انك استدعيت الى انجلترا وأنا متأكدة أنك تكره ذلك وتفعل أى شىء لتجعل الأمر أكثر سهولة

وأستطيع أن أرى أنه فى امكانك التفكير فى الزواج بعد شرب عدة كؤوس وفى أول مرة حاولنا ذلك أنا وأنت ولكننا فشلنا والانسان لا يبذل الجهد نفسه عند تفكيره فى الزواج مرة أخرى . وأنت تقول : ان فقدك هذه الفتاة معناه أن هذا نهاية حياتك . وقد أستخدمت الجملة نفسها سابقا بالنسبة لى وأستطيع أن أريك الخطاب . فما زلت محتفظة به وأعتقد أنك كتبت بالطريقة نفسها الى « آن » وقلت : اننا دائما نحاول أن يقول أحدنا الصدق للآخر . ولكن ياتوماس صدقك كان دائما مؤقتا . وما الفائدة من المناقشة معك أو محاولة جعلك تفهم الأسباب انه من الأسهل أن أفضل ماتمليه على عقيدتى وهو ما تظنه غير منطقى وأنت تكتب « ببساطة » . أنا لا أعتقد فى الطلاق ودينى يمنع الطلاق والجواب عن السؤال يا توماس هو « لا . لا . »

وكان هناك نصف صفحة قبل «الامضاء» ولم أقرأها وأعتقد أنها تحمل أخبار « الطقس » وأخبار احدى عماتى التى أحبها .

ولم يكن لدى سبب للشكوى . وكنت أتوقع الجواب وفيه كثير من الحقائق وكنت أرجو الا تعرض أفكارها هكذا بهذا الشكل من الشرح المؤلم لى ولها وقلت لفونج :

ـ انها تقول لا « وقلت ذلك بدون تردد » فهى لم تستقر على رأى . وهناك بعض الأمل .

وضحكت فونج وقالت :

ـ تقول هناك أمل ووجهك فى غاية الحزن .

واستلقت عند قدمى وسألت نفسى ماذا أقول لبيل ؟ . وبعد أن شربت اكثر أحسست بأنى أكثر استعدادا لمواجهة المستقبل وقلت لها ان الأمل كبير فى موافقة زوجتى على الطلاق وأن زوجتى تستشير أحد المحامين وانه من المتوقع بين يوم وآخر أن أتلقى التلغراف الذى يجعلنى حرا .

وقالت لى هى ، وكان صوت أختها الذى يتكلم :

ــ ان التلغراف ليس مهما الى هذه الدرجة . وفى امكانك ان تعقد معها اتفاقا .

فقلت لها :

ــ انا لست مدخرا نقودا ولا أستطيع أن أفوق بيل فى هذه الناحية .

فقالت :

ــ لا تقلق ربما حدث شيء فهناك « عادة » طرق كثيرة وتقول أختى : ان فى امكانك التأمين على حياتك .

وفكرت فى الطريقة العملية التى تفكر بها أختها والتى لا تقلل من أهمية النقود فى حل المشكلات ولا تجعـــل من روابط الحب شيئا كبيرا .

وفى ذلك المساء اشترت فونيج ثلاثة « أيشاربات » من الحرير قبل أن تغلق المحال فى شـــارع كاتينات وجلســـت على السرير وأخذت تعرضها على وهى تصيح مبتهجـــة بألوانها الجذابة وهى تملأ الغرفة بصوتها الموسيقى ثم طوتها بعناية ووضـــعتها مع باقى الأسر فى درج « الدولاب » وكان يبدو أنها تعـــد العدة لاقامة طويلة وساعدتها فى ذلك بأن كتبت خطابا الى بيل فى المساء نفسه وكان خطابا غاية فى الوضوح والنظر الى المستقبل . وهذا هو نص الخطاب الذى كتبته فى الليلة نفسها بحيث أنى وجدته ثانية فى كتاب « يورك هاردنج » مسئولية الغرب » الذى أخذته من منزله ولابد أنه كان يقرأ الكتاب عندما وصل اليه الخطاب فوضعه داخله .. كتبت له أقول :

« عزيزى بيل ..

« لقد كنت أنوى ان أكتب لك من المستشفى لكى اشكرك على ما حدث فى الليلة المجنونة . لقد أنقذتنى حقيقة من نهـاية غير مريحة . وأنا أستطيع أن أمشى الآن معتمدا على عصا . فلقد كان الكسر فى ساقى . وعندى ما اريد أن أعلنه لك . وأنا عارف بأنك

ســوف تسر له لأنك كنت تقــول دائما : ان « صالح » فونج هو ما نريده نحن ــ الاثنين ـ فلقد وجدت خطابا من زوجتي عندما عدت الى المنزل وهي موافقة على طلاقي وبذلك فأنت لست في حاجة الى أن تقلق على فونج .

وسألتني فونج أي لون تفضله في الايشــاربات فأنا أحب اللون الأصفر ؟ . فقلت لها : « نعم » اللون الأصفر . ثم قلت : هل لك أن تذهبي الى الفندق وترسلي هذا الخطاب بالبريد ؟ فنظرت الى العنوان وقالت : أستطيع أن أحمله الى المفوضية وبذلك نوفر طابع البريد . فقلت : أفضل أن ترسليه بالبريد .

ثم تمددت في فراشي مرتاحا وقلت لنفسي : على الأقل هي لن تتركني الآن قبل أن أضطر الى السـفر وربما في الغــا بعد الشراب أســتطيع أن أفكر في طريقــة تمكنني من البقــاء . وتمضي الحياة المعتادة . وكما في الغارات الجوية فان من المستحيل أن يكون الانسان خائفا باستمرار . فالمرء تحت تأثير العمل اليومي والأحداث التي تقابله والانفعالات في الشخصية يفقد مخاوفه الشخصية . وكان التفكير في شهر ابريل ومغادرة الهندالصينية والمستقبل المجهول بدون وجود فونج كل هذا قد تأثر بالتلغرافات اليومية الخاصة بالعمل والنشرات التي تصدرها صحافة البلاد وبمرض مساعدي وهو رجل هندي من « جوا » جاءت عائلته الى البلاد عن طريق بومباى واسمه « دومنجيز » وكان يحضر في غيابي المؤتمرات الصحفية غير المهمة ويفتح أذنيه الى الاشاعات وما يدور من كلام ويرسل التلغرافات التي أكتبها الى مكتب التلغراف والى الرقيب وكان يقوم بمعاونة أبناء وطنه من الهنود من التجار وخاصة في الشــمال في هايفونج وهانوي وزام دينه بأعمــال المخابرات لحسابي وأعتقد انه كان يعرف اكثر عن المندوب السامي الفرنسي أماكن حشد الكتائب الشيوعية في دلتا نهر توسكين .

ولكننا لم نكن نستخدم الأخبار التي نحصل عليها الا عنــدما تصبح معروفة ولم نكن ندلي بأية معلومات الى المخابرات الفرنسية وكان يستحوذ على صداقة العديد من الفيتناميين وثقتهم وخاصة

اقى سايجون ولكونه كان آسيويا بالرغم من اسمه كان هذا مدعاة للثقة الكبيرة به .

وكنت أحب « دومنجيز » لأخـــلاقه ، وكل ما تحسســه فمن اختـلاطك به فى المعـاملات اليومية هو رقته وتواضـعه وحب الحقيقة ولا يستطيع أن يكشف كبرياءه الا من كان شديد الالتصاق به مثل زوجته وربما كانت الحقيقة والتواضع صفتين متـلازمتين من صفاته وان كثيرا من الأكاذيب مبعثها كبرياؤنا وفى مهنة كمهنتى وهى الصحافة فان كبريائى متمثل فى أن أكتب تحقيقا صــحفيا أهم من الذى يكتبه الصحفى الآخر . ولقد كان « دومنجيز » هو الذى ساعدنى على عدم الاهتمام بالتلغرافات التى ترد من انجلترا تتساءل : لماذا لم أكتب عن هذا الحدث أو ذاك ؟ أو لماذا لم أكتب القصة التى رواها مراسل آخر ؟ وأنا لم أكتب هذه القصة لعلمى بكذبها .

والآن بعد أن مرض دومنجيز تحققت كم أنا مدين له . لـماذا لا اهتم به وكان هو يهتم بكل شىء حتى سيارتى كان يرعاها ويرى أنها مملوءة بالبنزين ؟ وبرغم كل ذلك فلم يحدث مرة واحدة أن تدخل فى حياتى الخاصة ولا حتى بمجرد نظرة « وأعتقد انه كان كاثوليكيا » . غير أنى لم يكن لدى ما يؤيد ذلك سوى اسمه والمكان الذى ينتمى اليه . والآن وخلال مرضه الذى كان يبدو لى أنه جاء رحمة لى لأن وقتى كله قد أصبح مشغولا ، وبذلك خلصنى من القلق الشخصى . أصبح على أن أحضر المؤتمرات الصحفية وأن أذهب الى فنـدق الـكونتيننتال لاســتمع الى أحاديث زمـلائى وأشارتهم فيها . ولكنى كنت أقل من دومنجيز مقدرة فى تمييز الصحيح من الأخبار من الكاذبة فيها ولذلك تعودت المرور عليه فى المساء لمناقشة ما قد سمعته من أخبار وأحيانا كنت أجد لديه أحد أصدقائه من الهنود جالسا بجوار السرير الخشبى الصغير الذى ينام عليه فى المسكن الذى يشارك فيه آخر فى أحد الشــوارع الصغيرة المتفرعة من شارع جالينى . وكان عندما يرانى يجلس فى السرير وقد جمع قدميه تحته حتى يخيل اليك أنك لا تزور مريضا

بل ان الذى بستقبلك هو مهراجا أو قسيس وعندما كانت تتملكه الحمى كان وجهه ينضح بالعرق ولكنه لم يكن يفقد قط صفاء ذهنه وكان يبدو كما لو أن المرض الذى به حل بجسم آخر غير جسمه . وكانت صاحبة المنزل الذى يقيم تضع دائما بجوار سريره ابريقا مملوءا بالشراب غير أنى لم أره مرة واحدة يتناول منه شيئا .

وكان هو الذى يسأل بقلق زائد عن صحتى ويعتذر عن السلالم التى أضطر الى ارتقائها لزيارته ثم قال :

ـ أحب أن أقدمك الى صديق لى قلديه قصة يجب ان نسمعها فقلت له :

ـ نعم ..

فقال :

ـ لقد كتبت اسمه فى ورقة لأنى أعرف أنك ستجد صعوبة فى تذكر الأسماء الصينية ومفهوم أننا لن ننشر هذه القصة .. وصديقى هذا يملك مخزنا للبضائع على « رصيف » ميثو والمخزن خاص بالحديد « الخردة » .

ـ هل القصة مهمة ؟ .

ـ قد تكون كذلك .

ـ هل لك أن تعطينى فكرة عنها .

ـ أفضل أن تسمعها منه . فهناك شىء غريب ولكنى لا أفهمه .

وكان العرق يتصبب من وجهه ولكنه لم يمسحه وتركه وكأنما حبات العرق كائنات حية ومقدسة . وهكذا كان يمثل بسلوكه صورة الهندوكى الأصيل من تحمل للألم دون شكوى ولم يكن يقدم قط على تعريض حياة ذبابة للخطر .. ثم قال :

ـ كم تعرف عن صديقك بيل ؟ .

ـ لا أعرف كثيرا فاتجاهنا متضاد . وهذا كل ما فى الأمر . وانا لم أره منذ كنا معا فى « تان ين » .

- أية وظيفة يعمل فيها ؟ .

- البعثة الاقتصادية . ولكن عمل هذه البعثة يغطى تحته مساوى كثيرة واعتقد أنه مهتم بالصناعات المنزلية . واعتقد أن اهتمامه هذا ذو صلة بالسياسة الأمريكية . وأنا لا أحب الطريقة التى يدفعون بها الفرنسيين لمواصلة القتال وفى الوقت نفسه يزاحمونهم فى تجارتهم .

- لقد سمعته يتكلم منذ أيام فى حفلة أقامتها المفوضية لرجال الكونجرس الزائرين . فلقد عينوه لكى يزودهم بالمعلومات عن البلاد .

فقلت :

- ليكن الله فى عون الكونجرس فهو لم يمر عليه ستة أشهر فى البلاد .

- لقد كان يتكلم عن القوى الاستعمارية القديمة - فرنسا وانجلترا - وكيف أنهما لا يستطيعان كسب ثقة الآسيويين وأن الدور حل على أمريكا التى تدخل الميدان .

فقلت له :

- لابد أنه تكلم عن استعمارهم لهونولولو وبورتوريكو ونيو مكسيكو .

فتابع دومنجيز كلامه قائلا :

- اذهب الى صديقى وتكلم معه .

وعدت الى المنزل حيث تركت مذكرة لفونج وأخذت عربة الى الميناء فوصلت عند غروب الشمس . وكانت المناضد والكراسى قد أخرجها أصحاب المقاهى الى « رصيف » الميناء بجوار البواخر الراسية والسفن الحربية وكانت المطابخ المحمولة مشتعلة لطهى وجبة المساء . وفى شارع « السوم » كان الحلاقون الجائلون منهمكين مع « زبائنهم » تحت الأشجار وقارئو الطالع قد جلسوا القرفصاء واسندوا ظهورهم للحائط وأمامهم « أكوام » من ورق

اللعب . وفى حى « شولون » تجد نفسك فى مدينة مختلفة عن بقية مدينة سايجون حيث يبدو كأنما النشـــاط اليومى آخذ فى البدء لا فى الانتهاء عند مغيب الشمس والسير فى الحى يشـــبه السير فى أجواء مسرحية . فالـلافتات العمودية المكتوبة باللغـــة الصينية والأنوار الوهاجة والازدحام الذى يحدثه وجود ممثلين اضافيين . كل ذلك تسير فيه كأنك سـائر فى أجنحـــة المسرح وأروقته الخلفية حيث يتحول المنظر فجأة الى هدوء أكثر وأضواء أضعف وفى مثل هـذا الجو وهـذا الشـعور سرت الى أحـد « الأرصفة » حيث تتزاحم الزوارق وتوجد المخازن مختفية فى الظلال ولا أحـد يوجد هناك • ووجدت المكان الذى أبحث عنه بصـعوبة وبالمصـــادفة . فالأبواب الذهبية كانت مفتوحة وكنت أستطيع أن أرى على ضوء مصباح « أكوام » البضائع القديمة . . كلها مناظر من رسوم بيكاسو ، أسرة قديمة ، وأحواض استحمام ، « وطفايات » للسجائر ، وهياكل سيارات . وسرت خـلال ممر ضيق وناديت من يدعى مستر شو ولكن ما من مجيب . وفى نهاية الممر وجـدت سلما يؤدى الى المدخل الخلفى للمسـكن . وحتى السلالم كانت مملوءة بقطع من الحديد التى قد تصلح فى يوم ما لاستخدامها فى المنـزل . وكان هناك غرفة كبـيرة فى المدخل والعائلة تجلس وينام بعض أفرادها كأنما هم فى معسكر للراحة عرضة فى أى وقت للرحيل ، وهناك أكواب الشـاى متناثرة فى كل مكان وعديد من الصناديق مملوءة بأشياء لا حصر لها ، وسلالم من الفبر جاهزة . وسيدة كبـيرة فى السن جالســة على سرير وبنتان وولدان . وطفل يزحف على الأرض . وثلاث نسوة متوسطات فى العمر فى سراويل بنية اللون « وجاكتات » من القماش نفسه ورجلان فى زاوية الغرفة فى ملابس زرقاء يلعبـان لعبة للتسلية ولم يعرنى أحد انتباها عندما دخلت . وكان الرجلان يلعبان بسرعة ويتعرفان على القطع التى يلعبان بها بلمسها وكان الصوت يشبه حفيف الرمال على الشاطىء بعد انحسار الموج وقفزت قطة على أحد الصناديق واقترب كلب منى ليشمنى ثم تراجع وقلت :

ـ المستر شو .

وهزت امرأتان من الثلاثة رأسيهما دون أن تنظرا الى أحد ممن فى الغرفة ورفعت امرأة قدحا من الشاى فغسلته ثم ملأته من وعاء ساخن فى صندوق مبطن بالحرير . وجلست على حافة السرير بجوار السيدة العجوز وأحضرت لى فتاة قدح الشاى وبدا كما لو أننى قد اندمجت فى الجو مثلى مثل القطة والكلب . وزحف الطفل على الأرض ومد يده ليجذب رباط حذائى ولم ينهره أحد وعلى الحائط كانت توجد ثلاث نتائج من التى توزعها البيوت التجارية وعلى كل منها صورة فتاة فى لباس صينى زاهى اللون ذات خدود « موردة » . كما توجد مرآة كبيرة كتب عليها « قهوة السلام » وربما كانت من المخلفات وشربت على مهل الشاى الأخضر المر وأنا أنقل « الفنجان » الذى ليس له يد من كف الى كف كلما أحرقتنى حرارته . ثم حاولت مخاطبة أفراد العائلة بالفرنسية وسألتهم :

ـ متى يحضر مستر شو ؟ .

ولكن لم يجبنى أحد . وربما لم يفهموا قولى . وعندما أفرغ قدحى ملئوه مرة ثانية وظل كل منهم على ما هو فيه . فامرأة كانت تكوى الملابس وفتاة تقوم بالحياكة . والصبيان منهمكان فى الاستذكار . والسيدة العجوز تنظر الى قدميها الصغيرتين نتيجة « للعادة » الصينية القديمة من لبس الأحذية الحديدية فى الصغر . والكلب يرقب القطة التى ظلت جالسة فوق الصناديق . وبدأت أتحقق الحياة الشاقة التى يحياها دومنجيز .

ودخل رجل صينى ـ فى منتهى النحافة ـ الغرفة وكان يبدو وكأنه لا يشغل حيزا ما أو كأنه فى سمك الورقة التى توضع لفصل البسكويت بعضه عن بعض فى الصناديق وكل السمك فيه متمثل فى بيجامته المخططة التى يرتديها . وسألت :

ـ المستر شو ؟.

فنظر الى دون تعبير يذكر في عينيه . ونظرت الى نحافة صدغيه والى ذراعيه اللتين فى حجم ذراعى فتاة صغيرة ومعصميه اللذين يشبهان معصمى طفل . وقلت :

ـ ان صديقى مستر دومنجيز قال لى ان لديك شيئا تريد أن تطلعنى عليه . هل أنت مستر شو ؟ .

ـ نعم أنا فعلا المستر شو .

وأشار الى باحترام أن أعاود جلوسى وخيل الى أنه قد نسى السبب الذى جئت من أجله وسألنى هل أرغب فى قدح من الشاى وأنه تشرف جدا بزيارتى ـ قدم لى قدحا آخر . ونظر الرجل حوله الى عائلته كأنما يراها لأول مرة وقال :

ـ أمى وأختى وزوجتى وعمى وأخى وأطفالى وأطفال عمتى .

أما الطفل فقد زحف بعيدا عن قدمى ونام على ظهره وهو يضرب الهواء بقدميه . وسألت نفسى : ترى طفل من من هؤلاء ؟ فليس فى الموجودين من هو فى ريعان الشباب أو فى سن مناسبة لينجبه وقلت :

ـ لقد قا لى مستر دومنجيز أن لديك أشياء هامة .

ـ آه . مستر دومنجيز ـ آمل أن يكون فى صحة طيبة .

ـ لقد أصيب بالحمى .

ـ ان الوقت غير صحى بالنسبة لهذا الفصل من فصول السنة .

وخيل الى أنه لا يتذكر من هو دومنجيز . وأخذ يسعل وتحت بيجامته التى فقد منها زرارين بدا جلده مشدودا من الكحة كأنه معلق على حبل فقلت له :

ـ يجب أن ترى طبيبا أنت نفسك .

ثم أحسست أن هناك قادما جديدا قد دخل علينا . وكان شابا يرتدى حلة أوربية أنيقة وقال بالانجليزية :

ـ ان مستر شو ليست له الا رئة واحدة •

فقلت :

ـ انى آسف جدا •

ـ انه يدخن كثيرا •

ـ ان هذا فظيع •

ـ ان الطبيب قال له : ان ذلك مضر بصحته •

ثم قال :

ـ هل لى أن أقدم نفسى ؟ أنا مدير أعمال مستر شو •

ـ اسمى فولر • ولقد أرسلنى مستر دومنجيز حيث قال لى : ان لدى المستر شو شيئا يريد أن يقوله لى •

ـ ان ذاكرة المستر شو قد ضعفت • هل لك فى قدح من الشاى ؟

ـ أشكرك لقد تناولت ثلاثة أقداح منه •

وقلت ذلك كأنه رد على سؤاله وسؤال عما جئت من أجله ـ وتناول مدير أعمال مستر شو القدح من يدى وسلمه لاحدى الصبيات التى ملأته مرة ثانية • وتناوله منها وتذوقه وقال :

ـ ان هذا الشاى ليس قويا بما فيه الكفاية •

ثم قام بغسل القدح وملأه من اناء آخر وقال :

ـ ان هذا أحسن •

فقلت :

ـ نعم أحسن بكثير

« وسلك » مستر شو زوره وبصق فى مبصقة من الصفيح مزينة بأزهار حمراء وأخذ الطفل « يتشقلب » بين الصناديق وقفزت القطة من فوق الصندوق الى حقيبة وقال مدير الأعمال :

ـ يحسن أن تتكلم معى • ان اسمى مستر هنج •

ـ لو أمكنك أن تقص على ما جئت لسماعه •

ـ يحسن أن ننتقل الى المخزن فهو أكثر هدوءا •

ومددت يدى الى مستر شو الذى تناولها بشىء من الدهشة ، وأخذ ينظر حوله فى الغرفة كما لو كان يريد أن يجعلنى متلائما معها • ونزلنا من الدرج أنا والمدير الذى قال لى :

ـ حاذر فان « السلمة » الأخيرة غير موجودة •

وأشعل بطارية لتنير لى الطريق ووصلنا الى المخزن بين الأسرة القديمة وأحواض الحمام وقادنى مستر هنج الى ممر جانبى وعندما سار حوالى عشرين خطوة توقف وأضاء البطارية وسلطها على برميل من الحديد وقال :

ـ هل ترى ذلك ؟

قلت :

ـ وماذا عنه •

فأدار البرميل وأظهر العلامة التجارية عليه فقرأت عليه : « ديولكتون » •

فقلت له :

ـ ان هذا لا يعنى شيئا بالنسبة لى •

فقال :

ـ ان لدى برميلين من هذا النوع • لقد عثرنا عليهما فى جراج المستر « فان ڤان موى » فى أثناء ازالتنا لبعض المحتويات ـ هل تعرفه ؟

ـ لا • لا أظن ذلك •

ـ ان زوجته من أقارب الجنرال ثى •

ـ ما زلت غير فاهم •

ـ هل تعرف ما هذا ؟•

ورفع مستر هنج شيئا من الأرض يشبه عصا منحنية ه الداخل أخذت تلمع عندما سلط عليها ضوء البطارية وقال :

ـ هل تعرف ما هذا ؟

فقلت :

ـ لا .

فقال :

ـ انه أداة لصهر المعادن .

وكان يبدو على مستر هنج أنه من الأشخاص الذين يجدون سعادة في اعطاء الأوامر . وتوقف مدة برهة لكى أظهر جهلى وقال :

ـ هل تعرف ماذا يعنى هنا ؟

فقلت :

ـ نعم بالطبع لكن لا أستطيع أن أتابعك فيما تهدف اليه .

فقال :

ـ ان هذه الآلة صنعت فى الولايات المتحدة بشركة «ديولكتون». اسم تجارى أمريكى هل بدأت تفهم ؟

ـ بصراحة . لا .

ـ ان هذه الآلة فيها عيب . ولذا تخلصوا منها . ولكن ماكان يجب أن يتخلصوا منها مع المخلفات وكذلك بالنسبة للبراميل . فلقد كانت هذه غلطة ولقد جاء مدير مستر موى هو نفسه وسأل عنها . ولم أستطع أن أعثر له على الآلة ولكنى تركته يأخذ البرميل الثانى لأنى قلت له : انه لا يوجد لدى سواه . وقال هو انه محتاج اليه ليضع فيه بعض « الكيماويات » وبالطبع لم يسأل عن الآلة والا كشف نفسه ولكنه بحث عنها مدة طويلة ، ثم ذهب مستر موى هو بنفسه الى المفوضية الأمريكية وسأل عن مستر بيل .

فقلت له :

ـ يبدو أن لك قلم مخابرات منظما .

برغم انى لم اكن أعلم حتى تلك اللحظة ماذا يعنى هـذا كله وقال :

ـ لقد طلبت من مستر شو أن يتصل بمستر دومنجيز .
ـ هل تعنى أنك استطعت أن تثبت صلة بيل بالجنرال تى . وهذا لا يعد ذا أهمية فالأمر ليس جديدا والكل هنا يسعى وراء الأخبار .

وقام مستر هنج بضرب كعبه فى البرميل الأسود وسرى صوت الصدى فى المخزن ثم قال :

ـ مستر فولر . أنت انجليزى ومعنى ذلك أنك محايد وكنت عادلا معنا وتستطيع أن تؤيد بعطفك أى الجـانبين ترى أنه على حق .

ـ اذا كنت تعنى أنك شيوعى أو من رجال الفيتنامية فلا تقلق
ـ فأنا لم أذهل لأنه ليس لى لون سياسى .

ـ لو حدث شىء غير سار هنا فى سايجون فسوف ينسبون هذا العمل الينا . واللجنة التى أتبعها تريد منك أن تنظر بعـين العدل الى ما يحدث ولهذا أريتك هذه الأشياء .

فقلت له :

ـ ماذا تعنى كلمة « ديولكتون ؟ » انه يبدو لى أنها ماركة لبن محفوظ

قال :

ـ ان لها صلة باللبن المجفف .

وأضاء بالبطارية داخل البرميل . فشاهدت مسحوقا أبيض على القاع وقال هنج :

ـ ان هذا هو البلاستيك الأمريكى .

فقلت :

ـ لقد سمعت شائعات تقول : ان بيل يستورد البلاستيك من أجل لعب الأطفال .

فقال هنج :

ـ انه لا يستورد من أجل اللعب ».

فقلت :

ـ ان هذه الآلة تشبه العصا .

فقال :

ـ ان الشكل ليس غريبا .

ـ أنا لا أرى فى أى شىء يمكن أن يستخدم ».

فاستدار المستر هنيج وقال :

ـ أنا أريد « فقط » أن تتذكر ما رأيته . وربما فى مستقبل الأيام ستكون لديك فكرة لأن تكتب عما شاهدته هنا الليلة ، ولكن يجب ألا تقول لأحد انك شاهدت البرميل فى هذا المكان .

فقلت له :

ـ وحتى هذه الآلة التى تشبه العصا .

فقال :

ـ وعلى الخصوص هذه الآلة .

وانه ليس من السهل على المرء أن يقابل لأول مرة الشخص الذى يقال انه انقذ حياتك . ولم أر بيل طوال المدة التى قضيتها فى المستشفى وكان لغيابه عنى وصمته عن الاتصال بى أثره على ـ فطالما تخيلته ذاهبا الى مسكنى متسلقا للسلالم ثم فاتحا للباب وذاهبا النوم فى فراشى وكنت غير محق فى تخيلاتى هذه . ولذا شعرت بأسفى من سوء ظنى وكان شعورى بالذنب يضيف احمالا الى باقى المزاسانى ومنها كتابة الخطاب الذى أرسلته الى زوجتى . وساءلت نفسى : أى اجداد لى أورثونى هذا الاحساس بالذنب .. وقطعا كانوا متخلصين من مثل هذا الشعور فى أيامهم الغابرة عندما كانوا قبائل متفرقة تقتل وتنهب دون احساس بأى ذنب فى تلك العصور الأولى . وساءلت نفسى : هل أدعو منقذى الى العشاء ؟ أو الأفضل أن أدعوه الى تناول كأس معى فى بار الكونتننتال .. فلقد كانت مشكلة اجتماعية غير معتادة ، وربما قيمتها تستمد من

الأهمية التي يعلقها الانسان على حياته وشغلتني هذه المسالة .. هل أدعوه الى الطعام مع زجاجة من النبيذ أو أكتفى بدعوته الى شرب عدة كؤوس من الويسكى ؟ ولقد حل هذه المشكلة بيل الذى حضر ونادانى من خلال الباب المغلق حيث كنت نائما خلال فترة الظهيرة الحارة وقد أتعبنى المجهود الذى بذلته فى الصباح لتمرين ساقى على السير ولم أسمعه وهو يقرع الباب .

وسمعته ينادى بصوت عال :

ـ توماس .. توماس .

وخيل الى اننى أسمعه فى حلم وانه يحمل معنى الألم كأنه ينادينى من برج محاصر وهو يصيح من الألم . واحد ينادينى كأنما يخاطبنى :

ـ توماس .. توماس .

فقلت له :

ـ اذهب بعيدا عنى يابيل فلا أريد أن تنقذنى . لاتقترب منى.

ثم سمعت قرعه على الباب وهو يقول :

ـ توماس ..

غير أننى ظللت مستلقيا فى فراشى كما لو كنت نائما فى حقل الأرز فى تلك الليلة وهو العدو الذى يريد موتى . وفجأة شعرت بأن القرع على الباب قد توقف وأن هناك شخصا يتكلم فى همس فى الخارج وأنا أكره الهمس «وأعتبره» خطرا ولم أستطع أن أميز المتكلمين ونهضت من الفراش ببطء مستعينا بالعصا ووصلت الى باب الغرفة التالية وربما سمع المتكلم حركتى فانقطع الكلام ولم احب هذا فسارعت بفتح الباب ، فشاهدت فونجواقفة فى الممر وكان بيل واقفا ويداه على كتفيها كأنما كانا متعانقين وصحت قائلا:

ـ تعاليا .. ادخلا .

فقال بيل :

— أنا لم أستطع أن أسمعك صوتى »

فقلت :

— لقد كنت نائما فى أول الأمر [illegible] الانفراد بنفسى ولـكن حيث انك قد حضرت فادخل .

وقلت لفونج بالفرنسية :

— أين عثرت عليه ؟

فقالت :

— هنا فى الممر ، لقد سمعته وهو يقرع الباب فأسرعت لكى أفتح له .

وقلت لبيل :

— اجلس . هل تريد قدحا من القهوة ؟

فقـــال :

— لا . وأنا لا أريد أن أجلس يا توماس .

فقلت :

— أما أنا فيجب أن أجلس فســاقى تؤلمنى . هــل تلقيت خطابى ؟

— نعم . لقد تلقيته وكنت أود الا تكون قد كتبته .

فقلت :

— لـماذا ؟

فقـــال :

— لأنه مجموعة من الأكاذيب ، انى كنت أثق فيك يا توماس »

فقلت له :

— يجب الا تثق فى احد عندما تكون هناك امرأة فى الموضوع

فقـــال :

— اذن يجب عليك الا تثق فى بعد الآن ، فسوف احضر الى

هنا من خلف ظهرك عندما تخرج وسوف أكتب خطابات على الآلة الكاتبة . وربما أكون قد كبرت فى السن يا توماس .

ولكن كانت هناك دموع فى صوته وبدا لى أنه أكثر شبابا من أى وقت مضى . وتابع بيل كلامه قائلا :

ـ ألم تكن تستطيع أن تربح بدون أن تكذب ؟

فقلت له :

ـ لا . أن هذه هى طريقة الأوربيين فى مثل هذه المسائل . وعلينا أن نحتاط لقلة ما فى أيدينا من مؤن . ولابد أنى كنت غبيا فى كتابتى للخطاب . كيف تعرفت على الأكاذيب فى خطابى ؟

فقال :

ـ أن السبب فى ذلك يرجع الى أخت فونج ، فانها تعمل مع جو الآن وقد رأيتها لتوى وهى تعرف أنهم قد استدعوك الى انجلترا .

فقلت :

ـ لقد فهمت . هل عرفت فونج ؟

فقال :

ـ والخطاب الذى ورد من زوجتك . هل تعرف فونج عنه شيئا ؟ فلقد رأته أختها .

فقلت :

ـ كيف رأته ؟

فقال :

ـ لقد حضرت الى هنا لرؤية فونج عندما خرجت أنت أمس وقد قدمته لها فونج لقراءته وبالطبع لا تستطيع أن تخدعها فهى تقرأ الانجليزية .

فقلت له :

ـ لقد فهمت .

ولم اجد سببا يدعونى الى أن أغضب من احد فأنا الذى يجب

أن يغضب منه ، وفونج اعطت أختهـا الخطاب كنوع من الفخر والاعتزاز ولم يكن ذلك دليلا على عدم ثقتها . وقلت لفونج :

ـ هل عرفت ذلك كله الليلة الماضية ؟

فقـالت :

ـ نعـم ...

فقلت لهـا :

ـ لقد لاحظت عليك بالأمس أنك كنت صامتة ، ولـكنك غير غاضبة منى .

فقالت لى :

ـ كان على أن أفكر .

وتذكرت أننى عندما استيقظت خلال الليل لاحظت عدم انتظام تنفسها مما يدل على أنهـا غير نائمة ، ووضعت ذراعى حولهـا وقلت لها :

ـ هل تحلمين ؟

حيث أنها كانت تصاب بالكابوس عندما جاءت لأول مرة لتقيم معى فى شارع كاتينات ، ولكنها بالأمس هزت رأسها ولم تجب وأدارت ظهرها . وقال بيل :

ـ ألا تستطيع يا توماس أن تشرح لماذا كل هذه الأكاذيب ؟

فقلت له :

ـ بالطبع ان هذا واضح للعيان فأنا اردت أن احتفظ بها

فقـال :

ـ دون مراعاة «مصالحها» فى شىء ؟

فقلت :

ـ بالطبـع .

فقـال :

ـ ان هذا ليس هو الحب .

فقلت :

ـ ربما لم يكن هو الحب بالنسبة لك يا بيل .
فقـــال :
ـ لقد أردت أن أحميها .
فقلت له :
ـ ولـكن لا أريد أن أحميها فهي ليست في حاجة الى حماية، وكل ما أريده هو أن أراها معي .
فقـــال :
ـ ضد ارادتها .
فقلت :
ـ انها لن تبقى بدون ارادتها .
فقـــال :
ـ انها لن تشعر نحوك بالحب بعد ذلك .
وكانت أفكاره من «البساطة» الى هذه الدرجة واستدرت لـكى أنظر الى فونج فوجدت أنها قد دخلت غرفة النوم وجلست على السرير وأخذت تطالع فى كتالوج مصور عن العائلة المالكة وقلت لبيل :
ـ ان الحب كلمة غريبـــة ونحن نستعملها لـكى نخفى بها مشاعرنا الحسية نحو امرأة ما ، وهؤلاء القوم فى هذه البلاد لا يعانون المشاعر الحسية وأنت سوف تصاب بأذى ان لم تـكن حذرا يا بيل .
فقـــال :
ـ انني كنت مستعدا لضربك لولا هذه الساق المصابة .
فقلت له :
ـ يجب أن تكون شاكرا لى وكذلك بالنسبة لأخت فونج . ان لك أحوالا غريبة . أليس كذلك وخاصة اذا كانت الأمور لا تتعلق بالبلاستيك .
فقـــال :
ـ البلاستيك ؟

فقالت :

ـ انى أرجو من الله أن تكون مدركا لما تفعله . أنا أعلم أن دوافعك طيبة فهي دائما حسنة .

وبدا عليه انه متحيز ومتشكك ثم قال :

ـ أريد أن أمنحها حياة شريفة ان هذا المكان ينضح برائحة العار .

فقلت له :

ـ نحن نقضى على الرائحة بأعواد من الطيب نحرقها . وأعتقد أنك قد وعدتها بثلاجة وسيارة وآخر طراز من أجهزة التليفزيون .

فقـــال :

ـ وكذلك الأطفال أما أنت فماذا سوف تقدم لها . فأنت لن تصحبها معك الى بلدك .

فقلت له :

ـ لا . لن أصحبها معى فأنا لست قاسيا الى هذه الدرجة الا اذا كان لدى الاستعداد لمنحها تذكرة عودة .

فقـــال :

ـ اذن أنت تريد أن تبقيها كأداة للتسلية حتى تغادر هـــذه البلاد .

فقلت له :

ـ انها مخلوق آدمى .. يا بيل ،وتستطيع أن تقرر ما هو فى مصلحتها .

فقـــال :

ـ تقرر على أساس « خاطىء » ، وهى لا تعدو أن تكون طفلة .

فقلت :

ـ انها ليست بطفلة ، انها أكثر متانة منك ، هل تعرف هذا النوع من الطلاء الذى لا يخدش ، انه فونج .. انها تستطيع أن تواجه حفنة من أمثالنا ، وكل ما فى الأمر أنها سوف تتقدم فى السن،وسوف تعانى متاعب الولادة والجوع والبرد وآلام الروماتيزم

ولكنها لن تعانى أبدا التفكير مثلما نفعل نحن الغربيين ، وهى لن تخدش بل كل ما فى الأمر أنها ستذوى .

وبينما كنت أتكلم كنت أرقب فونج وهى تقلب صفحات الكتالوج واستطعت أن أشاهد الصورة التى تشاهدها وهى صورة العائلة المالكة ومعها الأميرة « آن » وكنت اعلم أنى أخلق شخصية غير موجودة بكلامى هذا مثلما يحاول بيل أن يخلق منها واحدة . فالفرد لايعرف الانسان الآخر ، وكل الذى أستطيع أن أقوله عنها : أنها مثلنا تماما وهى لم تمنح ميزة التعبير عن نفسها وهذا كل ما فى الأمر ، وتذكرت السنة الأولى التى حاولت أن أفهمها خلالها عندما سألتها أن تقول لى فيم تفكر وتسببت فى ازعاجها عندما غضبت منها بسبب صمتها .

وقلت لبيل :

ـ لقد تكلمت ما فيه الكفاية وعرفت كل ما يمكنك أن تعرفه أرجو أن تذهب .

فنادى « فونج » فردت عليه :

ـ مسيو بيل ..

وهى تنظر اليه وكان تعبيرها يدل على الثقة ومضحكا فى الوقت نفسه . وقال بيل :

ـ لقد خدعك .

فأجابته :

ـ أنا لا أفهم ما تقول .

وقلت له :

ـ اذهب . اذهب الى قوتك الثالثة ويورك هاردنج ومسئولية الديمقراطية ، اذهب عنا لتلعب بالبلاستيك .

وفيما بعد تحققت أنه نفذ كلامى هذا بحذافيره .

***

ثم انى لم أر فيجو الا بعد موت بيل بأسبوعين ، اذ كنت سائرا فى شارع «شارنر» عندما سمعت صوته ينادينى من «النادى» وكان النادى هو المطعم المفضل لدى رجال البوليس الذين كانوا كنوع من التحدى لهؤلاء الذين يكرهونهم .. يتناولون الطعام والشراب فى الدور الأسفل على حين يجلس «الزباين» فى الدور العلوى بعيدا عن متناول القنابل اليدوية التى تلقى ، وانضممت اليه وأمر لى بكأس من الفرموت وقال :

ـ هيا العب على الكأس .

وأخرجت الزهر من جيبى وأخذنا نلعب لعبة واحد وثمانين؟ وفكرت كيف أن مرأى الزهر يعيد الى الانسان ذكرى سنوات الحرب فى الهند الصينية . وفى أى مكان فى العالم عندما أشاهد رجلين يلعبان بالزهــر تعود بى الذكرى الى هانوى أو سايجون وسط المبانى المخربة فى «فات ديم» وأرى رجال الباراشوت وهم محمبون مثل الجرارات بملابسهم الغربية وهم يحرسون القنوات، وأسمع صوت مدافع المورتار ، وربما أتخيل منظر طفل قتيل .. وكان للعبـــة ناحية حسية معروفة لكل رجال البوليس وربما اخترعها فيجو وأخذها عنه زملاؤه من الضباط الصغار فكل دور يخسره اللاعب يرفعه درجة فى رتبته العسكرية حتى يصل الى رتبة الكابتن أو القومندان . وربح فيجو الدور الثانى كذلك كما ربح الأول وقال وهو يعد أعواد الثقاب :

ـ لقد عثرنا على كلب بيل .

قلت :

ـ نعـــم .

ـ أعتقد أن الكلب رفض أن يترك الجثة ، وعلى كل فقد ذبحوه فلقد وجدناه على بعد خمسين يارده ومن المحتمل أنه حمل نفسه هذه المسافة .

فقلت :

ـ أمازلت مهتما بهذه الحادثة ؟

فقـــال :

ـ ان الوزير الامريكي مازال يضايقنا ، ونحن لا نعاني هـذه المشاكل والحمد لله عندما يقتل رجل فرنسي ، ولـكنه مثل هذه الحوادث لا تحمل طابع الندرة .

وأخذنا نلعب بتقسيم أعواد الثقاب أولا ، ثم شرعنا في اللعب الجدي وكان فيجو ماهرا في رمياته فهو يقذف الزهر بسرعة لكي يسجل الرقم المطلوب ، وأصبح لا يملك سوى ثلاثة أعواد ثقاب . أما أنا فكنت أرمي أقل الأرقام الممكن تسجيلها ودفع نحوي بعودين من الثقاب وعندما تخلص من آخر عود ثقاب معه خاطبني بقوله :

ـ كابتن .

ومعنى ذلك انني خسرت الدور وعلى أن أدفـع ثمن الشراب وناديت الساقي وقلت لفيجو :

ـ هل يهزمك في هذه اللعبة أحد ؟
فقـــال :

ـ ليس دائما ، هل تريد أن تنتقم ؟
فقلت :

ـ ليس الآن .. بـــل في مرة قادمة .. انك لمقـــامر ماهر يا فيجو .. هل تلعب لعبة أخرى فيها مغامرة ؟

فابتسم فيجو بتعس . ولأمر ما فـكرت في زوجته الشقراء التي تصادق الضباط من مرءوسيه وقال فيجو :

ـ حسنا . ان هناك اللعبة الكبرى .
فقلت له :

ـ اللعبة الكبرى .
فقـــال :

ـ دعنا نحسب المكسب والخسارة . انك لو كسبت فسوف تكسب كل شيء ولو خسرت فانك لا تخسر شيئا .

فتذكرت أحد أقوال الفيلسوف باسكال التى يقوم بقراءتها فيجو .

ـ ان الرابح والخاسر فى لعبة كلاهما مخطىء . فالطريق الصحيح لا يحتمل المقامرة .

ـ فقال فيجو :

ـ نعم . ولكن عليك أن تقامر . فأنت فى حياتك ليس من الضرورى أن تتبع مثلك العليا يافولر . فأنت مرتبط بغيرك مثلنا

فقلت :

ـ انه ليس ارتباطا دينيا .

فقــال :

ـ انني لا أقصد الدين بل كنت أفكر فى كلب بيل .

ـ آه ..

ـ هل تتذكر ما قلته لى عن ضرورة تحليل التربة فى مخاليه

فقلت :

ـ يالك من رجل ذكى وأنت تدعى التواضع .

قال :

ـ لقد توصلت الى أشياء لا بأس بها . لقد تعود بيل أن يصحب كلبه معه عندما يخرج أليس كذلك ؟

فقلت :

ـ أعتقد هذا .

قال :

ـ لأنه كان كلبا ثمينا لم يكن ليتركه وحده .

فقلت :

ـ ان تركه وحده لم يكن من الحكمة .

وتناول فيجو الزهر ووضعه فى جيبه فقلت له :

ـ ان الزهر زهرى يا فيجو .

ـ أنا آسف . فقد كنت مشغولا بالتفكير .

ـ لماذا قلت : انني مرتبط ؟

ـ متى رأيت كلب بيل لآخر مرة يافولر .

ـ الله وحده يعلم. فأنا لا أحتفظ بدفتر لتيد مواعيد الكلاب فيه .

فقـــال :

ـ متى تنوى أن تسافر الى بلدك ؟

ـ أنا لا اعرف بالتحـــــديد . فأنا لا أحب أن أعطي رجال البوليس معلومات فان ذلك يوفر عليهم المتاعب .

ـ انى أحب أن أمر عليـك فى بيتك حوالى الساعة العاشرة اذا كنت بمفردك .

ـ سوف أرسل فونج الى السينما .

ـ سوف تكون الحالة « عادية » معها مرة أخرى .

ـ نعم .

ـ غريب هذا . فأنا كنت أعتقد انك غير سعيد .

ـ من المؤكد أن هناك اسبابا كثيرة تسبب التعس يافيجو وأنت أدرى بذلك .

فقـــال :

ـ أنا .

قلت :

ـ نعم لأنك لست رجلا سعيدا .

قال :

ـ آه . ليس لدى ما اشكو منه . فان منزلا خربا ليس بالمنزل التعس .

قلت :

ـ ما الذى تقوله ؟

ـ انه أحد أقوال باسكال مرة أخرى . انه نوع من الجـدل لكى تشعر بالكبرياء برغم بؤسك .

ـ ان الشجرة لا يمكن أن تكون تعسه .

قلت :

ـ ما الذى جملك رجل بوليس يافيجو ؟

قال :

ـ هناك عدة عوامل . فالحاجة الى كسب العيش ، والاهتمام بمعرفة أحوال الناس وحب الفلسفه .

قلت :

ـ ربما كان من الأصوب لو كنت قسيسا .

قال :

ـ أنا لم أقرأ كتاب الملائمين فى تلك الأيام الخالية .

فقلت :

ـ أمازلت تشتبه فى ؟ أليس كذلك ؟ .. فى أن لى صلة بمقتل بيل .

فوقف على قدميه وشرب ما تبقى من قدح الفرموت وقال :

ـ اننى اريد أن أتكلم معك هذا كل ما فى الأمر .

وخيل الى عندما استدار وتركنى انه نظر الى نظرة فيها معنى كما لو كان ينظر الى سجين مطلوب منه القبض عليه لتنفيذ حكم بالسجن مدى الحياة .

وشعرت انى محل للعقاب . وكأنما كان بيل عندما ترك بيتى قد حكم على بالقلق لعدة أسابيع . فكل مرة أعود فيها الى المنزل كنت أتوقع المصائب . وأحيانا كنت لا أجد فونج هنالك . وكان من الصعب على أن أقوم بأى عمل حتى تعود من الخارج لأنى كنت دائما أتساءل : هل سوف تعود أولا ؟ . وعندما تأتى كنت أسألها أين كانت ؟ وأنا أحاول أن أخفى اللهفة والقلق من نبرة صوتى . وكانت أحيانا تجيبنى بأنها كانت فى السوق أو فى بعض المحال وتقدم لى ما يثبت ذلك من البضائع التى اشترتها أو تقدم نصف تذكرة السينما التى دخلتها وأحيانا تكون عند أختها حينئذ اعتقد أنها قابلت بيل .

وفى تلك الأيام كنت أبادلها الحب بوحشية كما لو كنت أكرهها ولكن الحقيقة هى اننى كنت أكره المستقبل وما قد يحمله . فلقد

كانت الوحدة شريكة في فراشي كل ليلة وفي كل ليلة كنت أضم الوحدة الى صدري ، برغم انها لم تتغير . فلقد كانت تطهو لي ، وكانت تطيع أمري ولكنني أصبحت أبحث كما كنت في أول معرفتي بها عن عقلها واصبحت اريد أن أقرأ أفكارها ولكن أفكارها كانت مختفية وسط «لفة» لا استطيع أن أقرأها ولم أكن أريد أن استجوبها فأنا لا احب أن أراها تكذب وكنت أستطيع أن أدعي أن الأمور بيننا لم تتغير مادامت لا تحدث أكاذيب مفضوحة ، ولكن فجأة سيطر على قلقي، وسألتها :

— متى رأيت بيل لآخر مرة ؟

فترددت في الجواب ، أو أنها كانت تريد أن تسترجع ماحدث وقالت :

— عندما حضر هنا ..

وفجأة أخذت اهاجم كل ماهو امريكي ، وكان حديثي مملوءا بنقد الأدب الأمريكي .. والسياسة الامريكية والاطفال الامريكيين وخيل الى انها قد انتزعت مني لا «بواسطة» فرد بل ان الأمة كلها قد أخذت فونج مني . وأصبحت محدثا غير مرغوب فيه عن امريكا حتى مع أصدقائي الفرنسيين الذين كانوا يعطفون على آرائي .. وخيل الى انني قد خدعت ولكن الخديعة لم تأت الا من صديقي .

وفي ذلك الوقت حدثت الأحداث المعروفة باسم قنابل الدراجات فبينما كنت عائدا من بار الأميرال الى الشقة الخالية وفونج في السينما أو مع اختها وجدت مذكرة مدسوسة من اسفل الباب وكانت من «دومنجبز» وكان يعتذر فيها عن أنه مازال مريضا ويطلب فيها مني أن أكون موجودا عند ناصية المحل الكبير الذي في شارع «شارنر» في حوالي العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي وقال :

— أن هذا الموعد بناء على طلب المستر « شو » غير اني اشتبهت في أن المستر هنج هو الذي طلب حضوري .

وكان لامر كله لا يحتمل اكثر من كتابة نصف عمود ، وعمود

نصف فكاهى كذلك ، فالأمر لم يكن يتعلق بالحرب المحزنة الثقيلة الوطأة فى الشمال ولا بهذه القنوات التى تزخر بالجثث الميتة فى أرديتها القاتمة ولا بصوت قذائف المورتار ، ولا بالوهج الساطع لقنابل النابالم ، وظللت منتظرا مدة ربع ساعة بجوار كشك لبيع الزهور عندما مر «لورى» من لوريات البوليس وكان آتيا من ناحية قيادة ادارة البوليس فى شارع كاتينات ونزل رجال البوليس عدوا من السيارة واقتحموا المخزن كما لو كانوا يهجمون على مظاهرة لتفريقها ولم يكن هناك مظاهرة بل دراجات كثيرة ، فكل بناء فى سايجون كان محاطا بالدراجات ولا يوجد فى أية جامعة فى الغرب هذا العدد من الدراجات وقبل أن يكون لدى الوقت الكافى لاعداد آلة التصوير كان المنظر الفكاهى غير الممكن تفسيره قد انتهى .. فقد اقتحم رجال البوليس طريقهم بين الدراجات وخرجوا وقد أخذوا ثلاثة منها وقد حملوها فوق رءوسهم وألقوها فى النافورة التى فى الميدان وقبل أن أتقدم لأسألهم عن الحادث كانوا قد عادوا الى سيارتهم وساروا فى شارع بونارد وسمعت صوتا يقول «عملية الدراجات» وكان صوت مستر هنج وسألته :

ـ ما هى العملية ؟ هل هى تمرين ؟ ولماذا ؟

فقال هنج :

ـ انتظر فترة أخرى .

وأخذ بعض المتسكعين يقتربون من النافورة حيث برزت احدى العجلات فوق سطح الماء كأنها تحذير لهم ، وعبر أحد رجال البوليس الشارع وهو يصيح ويحرك يديه وقلت لمستر هنج :

ـ دعنا نلق نظرة .

فقال :

ـ يحسن بنا ألا نفعل .

ونظر فى ساعته وكانت الساعة الحادية عشرة الا أربع دقائق وقلت :

ـ انك سريع .

فقال :

ـ ان السرعة هى التى تربح .

وفى اللحظة نفسها انفجرت النافورة فوق الطوار وطارت شظية من « الرصيف » وحطمت زجاج احدى النوافذ وسقط الزجاج المتناثر فى الماء ولم يصب أحد بسوء رغم ان الماء والزجاج المتناثر على ملابسنا ، وطارت عجلة احدى الدراجات وأخذت تدور فى الشارع ، ثم توقفت وقال هنج :

ـ لابد أنها الحادية عشرة .

وقلت :

ـ ما الأمر ؟

فقال هنج :

ـ لقد اعتقدت ان رؤية هذا المنظر يهمك .

فقلت له :

ـ تعال وتناول معى كأسا .

ـ لا . انى آسف يجب أن أعود الى مستر شو ولكن دعنى لأريك شيئا .

وقادنى الى موقف الدراجات حيث فك دراجته وقال :

ـ انظر بعناية .

فقلت :

ـ انها دراجة من نوع رالى .

ـ لا . انظر الى المنفاخ هل يذكرك بشىء ؟

ثم ابتسم باشفاق لعدم فهمى وركب دراجته وسار الى حال سبيله واختفى عن نظرى وهو متجه الى شارع شولون حيث مخزن المهملات ، وسرت أنا الى قيادة البوليس لأحصل على الأخبار ثم تذكرت ان الآلة التى شاهدتها فى مخزن المهملات كانت مشكلة حتى تشبه نصف منفاخ للدراجة . وفى خلال ذلك اليوم فى طول سايجون وعرضها كانت الدراجات تنفجر حيث حل محل المنفاخ قنابل من البلاستيك ركبت مكان الجزء « العادى » من كل منفاخ وذلك فى تمام الساعة الحادية عشرة وهو الميعاد المؤقت لانفجار

القنابل .. ماعدا الدراجات التى تلقى البوليس عنها أنباء وأشك أن مصدرها هو مستر هنج وكانت الانفجارات كلها «بسيطة» .. فقد حدثت عشرة انفجارات وجرح ستة من الأهالى جروحا «بسيطة» ، وكان زملائى من الصحفيين عدا المراسلين من جريدة الشرق الأقصى الذين سموا الحادث باسم « ثورة غضب » يقولون انهم لا يستطيعون شغل حيز فى جرائدهم لنشر الحادث بأكثر من «اعتبارهم» له شيئا باعثا على الفكاهة . وعنوان باسم « قنابل الدراجات » مثير فى الصحف ، وكان الجميع يلقون اللوم على الشيوعيين فى الحادث ، وكنت أنا الوحيد الذى كتبت أن القاء القنابل كان نوعا من الاحتجاج من قبل الجنرال ثى ، وكان هذا مدعاة لاحتجاج ادارة الجريدة التى أمثلها فالجنرال ثى ليس مهما لدرجة الكتابة عنه وأرسلت رسالة اعتذار الى المستر هنج عن طريق ؛ ومنجيز فلقد بذلت كل جهدى ورد على مستر هنج ردا مؤدبا وكنت لم أذكر اطلاقا لبيل علمى بعلاقته بالجنرال ثى ، فلقد قلت لنفسى : دعه يلعب بالبلاستك الذى يستورده فربما شغل ذلك ذهنه عن فونج وعلى كل فقد مررت على جراج المستر موى لأنى وجدت نفسى قريبا منه .

وكان المكان صغيرا وغير منظم ، ورأيت سيارة فى وسط المكان وغطاؤها مرفوع كأنها حيوان فاتح فمه فى أحد متاحف التاريخ الطبيعى ، وكانت الأرض مغطاة بقطع قديمة من الحديد والصناديق القديمة ، فأهالى فيتنام لا يلقون بشيء من المهملات مثلهم فى ذلك مثل الصينيين الذين يستطيعون أن يطهوا بطة واحدة بسبعة أشكال مختلفة بدون أن يلقوا حتى برجل واحدة منها . وتعجبت كيف يمكن أن يلقى هؤلاء بالبراميل وقطع الحديد القديمة حتى تصل الى مخزن مستر هنج ، وربما سرقها أحد الموظفين لبيعها بقروش قليلة ، أو ربما رشا هنج أحد هؤلاء الموظفين ليحضره له . ولم أر أحدا فى المكان فدخلته ، وربما ابتعدوا عن الجراج فترة خوفا من حضور رجال البوليس ، ومن المحتمل أن يكون للمستر هنج اتصالات بادارة البوليس ولكن حتى لو كان صحيحا فمن المستبعد أن البوليس سوف يهتم ويقوم

بعمل ، فمن وجهة نظرهم يرون أن يترك الأهالي يعتقـــدون أن القنابل كانت من فعل الشيوعيين ، وما عدا السيارة والمخلفات القديمة من الحديد لم يكن هناك مايرى على الأرض المصنوعة من الأسمنت وكان من الصعب التكهن بأن القنابل قد صنعت فيجراج المســتر موى ، ولم أكن متأكدا كيف يتيسر لانســـان أن يحول المسحوق الأبيض الذى رأيته فى البراميل عند المستر هنج الى بلاستيك ولكن من المؤكد أن طريقـــة تحويله الى بلاســتيك كانت معقدة الى درجة لا يمكن معها تحويله الى بلاستيك فى هذا المكان. وحتى « طلمبتى » البنزين اللتين فى الشارع أمام المحل كانتا تشكوان الاهمال . ووقفت فى المدخل ونظرت الى الشـــارع ورأيت تحت الأشــجار فى وســـط الشـــارع الحـلاقين يمارسون عملهم. وشاهدت قطعة من مرآة مثبتة فى أحد الأشجار تعكس ضـــوء الشـمس ومرت بى فتاة مرتدية قبعة واسعة وتحمل على كتفيهـــا « سبتين » ثبتا فى عمود وهى تسير مسرعة وكان قارىءالمستقبل فى الشارع قد وجد « زبونا » وهو رجل عجوز له ذقن أخذ ينظر بصبر نافد الى قارىء الطالع وهو يقلب بين يديه أوراق اللعبالتى يقرأ فيها الطالع . وتساءلت : أى مســـتقبل فى عالم الغيب ثمن الاطلاع عليه قرش صاغ ؟.

والحياة فى شارع السوم حياة مكشوفة. فكل فرد هنا يعرف المستر موى ولكن رجال البوليس لم يكن لديهم المفتاح الذى يجعلهم يولونه ثقتهم وكان هذا هو مستوى الحياة حيث يعرف كل سر من الأسرار . ولكن لم يكن فى مقدورك النزول الى هذا المستوى كما يسهل عليك أن تنزل الى الشارع . وتذكرت النسوة العجائزاللاتى يثرثرن أمام منزلى فهن كذلك يعرفن عنى كل شىء ولكننى لا أعرف ماذا يعملن .

ودخلت ثانية الجراج حيث قصدت مكتبا صغيرا فى نهـايته . وهناك وجدت النتيجة السنوية الصينية «العادية» . كما شاهدت مكتبا عليه أوزان مهملة وقائمة بالأســـــعار وزجاجة من الصمغ و « ماكينة » جمع أرقام ودبابيس للورق واناء لصنع الشاى وثلاثة

قناجين وعديداً من الأقلام غير المبرية وصورة غير مكتوب عليها لبرج ايفيل . وكان هناك باب مغلق فى مؤخرة حجرة المكتب غير أن المفتاح كان موجوداً على المكتب بين الأقلام ففتحت الباب ودخلت فوجدت نفسي فى سقيفة فى حجم الجاراج وكانت تحتوى على قطعة واحدة من الآلات بدت لأول وهلة أنها كقفص من الأسلاك والعصى المتشابكة وبداخلها « تعاليق » كأنما هى قفص أعد لطائر غير ذى جناحين . وخيل الى أنها مربوطة بقطعة قديمة من الثياب وكان يبدو أن الأشرطة القديمة قد استخدمها المستر موى قبل ذلك في التنظيف ووجدت على الأشرطة اسم صانعها فى مدينة ايسون وأرقاما مسلسلة عليها ولا أعرف معنى الرقم المسلسل وأدرت التيار الكهربى ودبت الحياة فى « الماكينة » القديمة وكانت العصى المركبة فى الآلة لها غرض . وهى أشبه برجل عجوز يستجمع كل قواه الباقية ليضرب بها معصمه الى أسفل وبدت لى كانها آلة للضغط أو للطباعة وفى الهند الصينية حيث لا « يعتبر » شيء غير ذى منفعة برغم مرور سنوات وسنوات على اختراعه فان هذه الآلة القديمة التى عفا عليها الزمن كانت لا تزال مستعملة . ونظرت الى الآلة بدقة فوجدت بها بقايا مسحوق أبيض . وفكرت فى « دبولكتون » وشيء قريب الشبه من اللبن ولم يكن هناك فى المكان أى برميل أو عصى .

وعدت ثانية الى حجرة المكتب والجراج وأحسست برغبتى فى مداعبة السيارة القديمة والربت عليها . فأمامها مدة كبيرة تنتظرها ولكن فى يوم ما سوف تستخدم فى صنع شيء — أما المستر موى ومعاونوه فهم الآن فى مكان ما وسط حقول الأرز متجهون الى الجبال المقدسة حيث يوجد مركز قيادة الجنرال « ثي » وتخيلت أننى بعيد عن الجراج فى مكان ما وسط حقول الأرز حيث التجأت الى البرج فى تلك الليلة وأننى أنادى مستر موى الذى أدار رأسه الى من وسط « سنابل » الأرز .

وعدت سيرا الى المنزل حيث وجدت النسوة العجائز اللاتى ماكدن يريننى حتى أخذن فى ثرثرتهن المعتادة التى لا أفهم لها

معتي كعلم قيمي لثرثرة الطيور ولم تكن فونج بالمنزل بل وجدت مذكرة منها تقول انها ذهبت عند أختها وتمددت على السرير فكنت لا أزال أشعر بالتعب بسرعة منذ جرحى فى تلك الليلة فى البرج وعندما استيقظت وجدت ساعتى تشير الى الواحدة وخمس وعشرين دقيقة وأدرت رأسي متوقعا أن أجد فونج نائمة ولكن الوسادة كانت خالية ولابد أنها غيرت غطاء المخدة فى هذا اليوم حيث ان برودة « الغسيل » كانت لا تزال ظاهرة عليه وقمت وتوجهت الى الدرج الذى تضع فيه « الايشاربات » الخاصة بها فلم أجدها . وتوجهت ناحية رف المكتب فلم أجد صورة العائلة المالكة البريطانية كذلك فلقد أخذت مهرها معها . وفى لحظات الصدمة يكون هناك ألم قليل . فلقد بدأ الألم حوالى الساعة الثالثة عندما شرعت أرسم خطوط الحياة الجديدة التى على أن أحياها وأستعيد ذكريات الماضى استعدادا لمحوها . وحاولت استعادة الذكريات غير السعيدة فلقد كنت متمرنا ولقد مرت بى هذه التجربة من قبل وأعرف ماذا يجب أن أفعله ولكنى كنت أكثر تقدما فى السن وأحسست أنه ليس لدى النشاط الكافى لاعادة البناء من جديد .

وتوجهت الى المفوضية الأمريكية وسألت عن بيل وكان من الضرورى أن آملأ استمارة على الباب وأقدمها لرجل البوليس الحربى . الذى قال لى :

ــ أنت لم تكتب سبب الزيارة .

فقلت له :

ــ انه يعرف .

فقال :

ــ هل حدد لك ميعادا من قبل .

فقلت :

ــ تستطيع أن تقول ذلك لو أحببت .

فقال :

ـ أن هذا يبدو لك سخيفا ولكن علينـــا أن تكون فى منتهى الحذر فكثير من الأشخاص الشواذ يحضرون الى هنا .

فقلت :

ـ لقد سمعت ذلك .

فحرك «اللبانة» التى يمضغها الى الناحية الأخرى من فمه ودخل المصعد وانتظرت ولم يكن لدى فكرة عما سأقوله لبيل . فهذا شيء لم اقم به من قبل وعاد رجل البوليس وقال :

ـ أعتقد أنه يمكنك الصعود الى الغرفة ١٢ أ الدور الأول .

وعندما دخلت الغرفة رأيت أن بيل لم يكن موجودا . وكان جو جالسا خلف المكتب وجو هو الملحق الاقتصادى . ولم أستطع تذكر اسمه الأول .. وأخذت أخت فونج ترقبنى من خلف «ماكينة كتابة . وسألت نفسى : هل هذه النظرة التى تحدجنى بها هى نظرة الانتصار ؟

وقال جو :

ـ تعال . تعـــــال يا توم .. اننى مسرور لرؤيتك كيف حال ساقك ؟ ونحن لم نتعود زيارتك لنا فى مكتبنا المتواضع . خذ كرسيا وقل لى : ما هو رأيك فى سير الهجوم الجديد على القوات الثائرة ؟ ولقد رأيت جرانجر فى الكونتيننتال البارحة وقد سافر الى الشمال مرة أخرى ان هذا الولد مهتم بعمله . ما هى الشائعات فى البلد يا توم . فأنتم معشر الصحفيين تجعلون آذانكم مفتوحة لكل شيء . آسف بخصوص ساقك . فلقد قال لى آلدن .

فقلت :

ـ أين بيل ؟

قال :

ـ انه ليس فى المكتب هذا الصباح . وأعتقد انه فى منزله فهو يقوم بعمل كثير فى منزله .

ـ أنا أعرف أى عمل يقوم به فى منزله .

ـ أنه ولد « كفء » ـ ماذا تقول ؟

فقلت :

ـ على أى حال . انا أعرف شيئا مما يقوم به فى منزله .

قال :

ـ أنا لا أفهم يا توم . فأنا جو البطىء ـ وهـــذا هو طبعى . ودائما كنت هكذا وسوف أظل هكذا .

قلت :

ـ انه مع صديقتى . أخت التايبست التى تعمل لديك .

قال :

ـ أنا لا أعرف ماذا تقصد .

فقلت وأنا أومىء الى أختها :

ـ اسألها . لقد رتبت هي ذلك . لقد أخذ منى بيل صديقتى .

فقال :

ـ اسمع يا فولر . لقد ظننت أنك قدمت من أجل عمل . وأنت تعلم أنه لا يمكننا الكلام فى مثل هذا فى المكتب .

قلت :

ـ لقد جئت لمقابلة بيل وأعتقد أنه مختبىء .

قال :

ـ أنت آخر رجل يمكن أن يقول هذا عن بيل بعد ما فعله من أجلك .

قلت :

ـ آه . طبعا طبعا . لقد أنقذ حياتى . أليس كذلك . ولكننى لم أسأله قط ذلك .

قال :

ـ لقد أنقذ حياتك مع تعريض حياته للخطر . فان لهذا الشاب قوة خارقة .

فقلت :

ـ أنا لا أهتم بقوته الملعونة .

قال :

ـ ان علينا أن نؤدى عملنا . وهناك تقرير عن انتاج المطاط .

قلت :

ـ لا تقلق . فاذا ذاهب . ولكن قل لبيل اذا خاطبك بالتليفون انني قد جئت وقد يظن أنه من الأدب أن يرد لي الزيارة .

ثم قلت لأخت فونج :

ـ أرجو أن تكوني قد أحضرت شهودا لحضور التسوية النهائية لموضوع أختك وأحسب أنك أحضرت القنصل الأمريكي ومندوبا من الكنيسة لكي يشهدوا على انضمامها لبيل .

وخرجت الى الممر ووجدت بابا مكتوبا عليه «للرجال» فدخلت وأغلقت على نفسي الباب وأسندت رأسي الى الحائط البارد وأخذت أبكي . ولم يكن قد سبق لي أن بكيت قبل الآن . وحتى «دورات المياه» عند الأمريكيين كانت مكيفة الهواء . وسرعان ما جفف الهواء المكيف الدموع في عيني كما جفت الغصـــة في فمي والألم في جسدي .

وتركت الامور في يد « دومنجيز » ورحلت الى الشمال . ففي مدينة هالسيونج كان لي أصدقاء في سرب الطيران « ماسـكوني » وكنت أقضي ساعات في بار المطار أو العب لعبــة « فونج » على الحشيش الأخضر في الخارج ورسميا فانني كنت مقيما في الجبهة وبذلك كنت على قدم المساواة مع جرانجر ولكن وجودي في الشمال لم يكن ذا فائدة تذكر لجريدتي مثلما حدث في « فات ديم » ولكن اذا تعرض المرء للكتابة عن الحرب فان احتـرام النفس يتطلب أن يشارك بين حين وآخر في أخطارها ولم يكن الأمر سهلا في المشاركة في أخطار الحرب . فقـــد جاءت الأوامر من هانوي بألا أصحب الطيارين في غاراتهم الا اذا كانت غارات أفقية تكون فيها الطائرة فوق مرمى المدافع الرشـــاشة . وهي رحـلة لاتعــدو أن تكـــون رحلـــة بالأتوبيس في ســـلامتها وأمنهـــا عدا ما قد يصـبب الطـــائرة من خطـــأ في القيـــادة أو اصـــابة الماكينة بعطب وكنـا نطـير على حسب جدول معـــين ونعـــود على حسب جدول معين . أما حمولة الطائرة من القنابل فكانت تلقى من الارتفاع الشاهق على أحد « الكباري » أو المستودعات وتتصـاعد أعمدة الدخان ثم نعود في الميعاد نفسه لنتناول فاتحات «الشهية»

قبل تناول الطعام وفى صبيحة أحد الأيام كنا فى ميس الضباط فى البلدة وكنت أتناول البراندى مع الصودا بصحبة ضابط شاب كان يرغب رغبة شديدة فى زيارة البلدة عندما جاءت الأوامر بالقيام بطائرة وسألنى :

ـ هل تحب أن تأتى معى ؟

فقلت :

ـ نعم .

فحتى الغارات الأفقية كانت وسيلة لقتل الوقت وقتل الأفكار. وبينما كنا متجهين الى المطار فى سيارة قال لى :

ـ ان هذه غارة رأسيه .

فقلت له :

ـ كنت أظن أننى ممنوع من المصاحبة فى الغارات الرأسية .

قال :

ـ لا بأس . مادمت لا تكتب شيئا عنها . وسوف يمكنك فى هذه الغارة رؤية جزء من البلاد مجاور للصين لم تره قبل ذلك .

فقلت :

ـ لقد كنت أعتقد أن الأمور هادئة فى هذا الجزء من البلاد وأن الفرنسيين مسيطرون هنالك سيطرة تامة .

فقال :

ـ لقد كان هذا فيما مضى . لقد احتل الفيتناميون هذا المكان منذ يومين ورجال البارشوت التابعون لنا على بعد عدة ساعات من المكان ونحن نريد أن يبقى الفيتناميون مختبئين حتى يتيسر لرجال البارشوت اعادة احتلال المواقع . وهذا يعنى الهجوم الغاطس والضرب بالمدافع الرشاشة . ونحن ليس لدينا سوى طائرتين للقيام بالمهمة . هل شاهدت القذف المنخفض قبل ذلك ؟

فقلت له :

ـ لا .

قال :

ـ انها عملية غير مريحة اذا لم تكن قد تعودتها .

وكان سرب « ماسكونى » لا يملك الا طائرات قاذفة صغيرة من طراز ب ٢٦ ـ وكان الفرنسيون يطلقون عليها اسم « العاهرة » وذلك لقصر أجنحتها وعدم وجود معين مرئى لها فى طـيرانها . وركبت الطائرة خلف الملاح فوق كرسى لا يزيد على كرسى الدراجة وركبتى ملتصقة بظهر ملاح الطائرة وصعدت بنا الطائرة ببطء فوق النهر الأحمر ـ وكان النهر الأحمر فى هذه الساعة لونه أحمر فعلا . ونظرنا الى النهر كما سبق أن نظر اليه مستكشفه الأول من مئات السنين في وقت الشفق وقد خضبت الشـمس الماء بين الضفتين بلونها الشبيه بلون الدم ـ وعلى ارتفاع تسعة آلاف قدم تحولنا ناحية النهر الأسود . وكان فعلا لونه أسود مملوء بالظلال وكان منظره جليلا عظيما وقد أحاطت به التلال والغابات والمهاوى . ولو أسقطنا فصيلة من الرجال فى هذا الفضاء الشاسع لكنـا كمن أسقط بضعة قروش وسط حقل واسع ورأينا أمامنـا طائرة صغيرة . وحلقنا مرتين حول أحد الأبراج للحراسة وحول القرية الخضراء ـ واستدار الى الطيار وغمز بعينيه . وكان اسمه«ترون» وأمامه فى عجلة قيادة الطائرة كانت توجدالأزرار التى تطلق المدافع الرشاشة وتقذف القنابل وأحسست بأحشائى تتقلب داخل بطنى ونحن نتخذ مركزنا لبدء القذف الغاطس وهو الاحساس نفسه الذى يخامر المرء عندأول خطوة يتعلمها فى الرقص أوفى أول مأدبة عشاء يحضرها وأول حب ينبض به قلبه وتذكرت يوم السباق الكبير فى ويمبلى عنـدما لا يكون هنـاك فـائدة من التـراجع وتحس بأنك موكل بخبرتك . واستطعت أن أقرأ على مؤشر الارتفاع أننا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عندما بدأنا الانقضـاض وأصبحت كل أعصـابنا مشدودة والتصقت بظهر الملاح نتيجة لانقضاض الطائرة وأحسست كأن شيئا ثقيلا جدا يضغط على صدرى . ولم أنتبه الى القنابل وهى تقذف أو الى صوت المدافع الرشاشة وهى تنطلق من الطائرة الى الأرض وامتلأت الطائرة برائحة البـارود وانزاح الضغط من فوق صدرى عندما أخذنا فى الارتفاع ثانية . وشعرت كأن معدتى قد سقطت من ناحية الأرض . ولمدة أربعين ثانية انمحت ذكرى

بيل من خاطرى وحتى شعورى بالوحدة لم يعد موجودا .
وشاهدت الدخان ينبعث من الحرائق التى شبت نتيجه للمدف
من النافذة الجانبية للطائرة ونحن نرتفع فى هيئة قوس وقبل أن
نبدأ الانقضاض للمرة الثانية شعرت بالخوف من ظهورى بمظهر
الخائف والخوف من أن يصيبنى الغثيان فألفظ ما فى أحشائى
على ظهر الملاح ، والخوف من ألا تحتمل رئتاى الضعيفتان من
الكبر كل هذا الضغط عليهما . وبعد الانقضاض العاشر كان كل
ما أشعر به هو الضيق من أن المسألة قد طالت أكثر مما يجب وأن
الوقت قد حان لنعود من المهمة . ومرة أخرى هربت الطائرة من
نيران المدافع الرشاشة وارتفعت أعمدة الدخان وكانت القرية التى
نقذفها محاطة بالجبال من كل ناحية وكان علينا فى كل مرة نضربها
أن نقترب من خلال ثغرة معينة فى هذه الجبال . ولم يكن أمامنا
طريق آخر لنغير زاوية هجومنا . وعندما قمنا بالانقضاض الرابع
عشر شعرت بأنى قد تخلصت من الخوف من الظهور بمظهر
الضعفاء . وفكرت فى أن كل ما عليهم لكى يصيبونا هو وضع
مدفع ليغطى هذه الثغرة التى نهاجمهم منها . وربما لم يكن لديهم
مدافع كافية . وانتهينا من القذف الذى استغرق أربعين دقيقة
كنت خلالها حرا من أفكارى الخاصة وكانت الشمس قد غربت
عندما استدرنا عائدين الى القاعدة ولم يعد النهر الأسود أسود
فى لونه وتحول لون النهر الأحمر الى لون الذهب ثم انقضت
الطائرة مرة أخرى ناحية النهر وهى تكاد تزحف فوق حقول الأرز
وقد اتجهت مقدمتها كما تتجه الرصاصة المنطلقة ناحية زورق فى
الماء وانطلق المدفع مرة واحدة وتناثرت أشلاء الزورق الممزقة ولم
ننتظر لكى نرى ضحايانا يصارعون الماء فى سبيل البقاء بل ارتفعت
بنا الطائرة لتعود الى القاعدة وحل بى الشعور نفسه الذى حل بى
عندما رأيت الجثث تملأ الماء فى « فات ديم » وقلت لنفسى : « انى
أكره الحرب » فلقد كان هجومنا على الزورق مرعبا . فقد كنا
مارين فحسب فى طريق العودة وفجأة طلقة واحدة من المدفع
وأصبح الزورق فى خبر كان . ولم يكن هناك من يرد علينا النيران
وتركناهم يصارعون الموت من بقى منهم وأضفنا الى القتلى فى هذا

اليوم حصتنا منهم ووضعت الميكروفون على أذنى وقال لى الكابتن « ترون » :

ــ سوف نقوم بجولة صغيرة فان منظر شمس المغيب رائعة على الحقول ويجب ألا تفوتك ».

وقال ذلك بعطف كما لو كان مضيفا يريد أن يطلع ضيفه على جمال ضيعته . وطرنا مسافة مائة ميل نتبع الشمس فى غروبها ».

وفى مهنته فان الراحة بالنسبة له لا تذهب الى أبعد من ذلك الذهاب الى حان للشرب . واستلقينا كل منا فى حجرة صغيرة منخفضة الجدار وسط صف من الحجرات المماثلة ولم تكن حجرة بالمعنى المفهوم بل مكان على قدر اضطجاع المرء . به حائطان لا يزيد كل منهما على ثلاثين سنتيمتر وأعد صاحب المحل الصينى الشراب . ولم أكن قد شربت منذ تركتنى فونج . وعلى مقربة منا كان هناك امرأة ذات ساقين طويلتين رائعتين ، كأنهما لوحة من لوحات ماتيس قد انتهت من الشراب وراحت تطالع فى مجلة نسوية وقد جمعت ساقيها على صدرها وكان بجوارها رجلان صينيان فى منتصف العمر يتناولان الشاى يتناقشان فى شئون العمل وبجوارهما كئوس الشراب التى انتهيا منها وقلت «لترون» :

ــ هذا الزورق .. هل كان هناك ما يبرر ضربه ؟ ».

فقال ترون :

ــ من يدرى .. ففى هذا المكان من النهر لدينا تعليمات بضرب كل ما نراه .

وشربت أول كأس . وقال « ترون » :

ــ ان ما حدث اليوم ليس أسوأ ما حدث لى ففوق القرية كان من الممكن أن يسقطونا . وكان الخطر بالنسبة لنا كالخطر بالنسبة لهم والذى لا أقبله هو القذف بقنابل النابالم من ارتفاع ٣٠٠٠ قدم ونحن آمنون فى أثناء القذف . هل رأيت الغابة وهى تحترق ؟ ».

الله وحده يعلم ما الذى يمكن أن تراه من فوق الأرض . فالمساكين تحرقهم القنابل أحياء وقنابل النابالم يسرى لهيبها كما يسرى الماء .

فقلت له :

ــ وهذا الزورق ؟ .

قال :

ــ نعم هذا الزورق كذلك .

وأخذ يرقبنى وأنا أمد يدى لأتناول الكأس . وقال :

ــ أنا أحسدك على وسائلك للهرب من الحقيقة .

فقلت له :

ــ أنت لا تعلم ماذا أحاول ان أهرب منه . انها ليست الحرب فهى لا تهمنى فى شىء وأنا غير مشترك فيها .

ــ سوف تشاركون فيها جميعا فى يوم ما .

قلت :

ــ ليس أنا .

فقال :

ــ أنت ما زلت تعرج .

قلت :

ــ ان لهم الحق فى اطلاق الرصاص على . ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك بل كانوا يهدمون برجا للحراسة . وعلى المرء أن يتجنب فصائل الهدم حتى ولو كانوا يعملون فى ميدان بيكاديلى .

ــ يوما ما سوف يحدث شىء وتنضم الى أحد الجانبين .

ــ لا . . فأنا عائد الى انجلترا .

قال :

ـ تسبب هذه الصورة التي أرتني اياها مرة ! .

ـ لا .. لقد مزقت هذه الصورة . فلقد تركتني صاحبتها .

قال :

ـ انا آسف .

قلت :

ـ هكذا تحدث الأشياء . فالانسان تترك الناس أحيانا ، ثم يتحول التيار فيترتونه سم . وفي رايي ان هذا يجعلني اعتقد في العدالة .

قال :

ـ ان كذلك . ففي أول مرة أسقطت فيها قنابل النابالم لم أفكر في ان هذه القرية التي ولدت فيها . وهل القرية التي يعيش فيها مسيو « ديبوا » صديق ابي ؟ وكذلك الخباز . فقد كنت شغوفا جدا بخباز القرية وهو الآن يعدو وسط لهيب نيران القنابل التي القيتها . ان رجال حكومة فيشي لم يضربوا بلادهم بالقنابل ولكني أشعر بأني أسوأ حالا منهم .

قلت :

ـ ومع ذلك فأنت تواصل عملك الذي تكرهه .

قال :

ـ ان ما أشعر به ان هي الا حالات عارضة عندما أستخدم النابالم .وباقي الوقت أشعر بأني أدافع عن أوربا . وأنت لا تشعر بأن رجال الجانب الآخر يفعلون أفعالا في الدرجة نفسها من الشدة . وعندما تراجعوا عن هانوى سنة ١٩٤٦ لقد عاقبوا المئات من أبناء جلدتهم الذين ظنوا أنهم قد عاونونا .

قلت :

ـ وبسبب هذا فأنا لاأريد أن أشارك في هذه الحرب .

قال :

ـ ان المسالة ليست مسألة عقل أو عدالة . فنحن جميعا نشارك فى الأمر تحت ظروف عاطفية معينة ثم نجد أنفسنا غير قادرين على الخلاص والحرب والحب منذ القدم تجدهما متقاربين .

ونظر بحزن الى حيث ترقد المرأة التى تبدو كلوحة من لوحات ماتيس . وقال :

ـ أنا لا أريد أن يتغير الأمر عما هو عليه . فهناك فتاة أعرفها أصبحت مشتركة فى الأمر بسبب والديها فالأم من أهل البلاد والأب فرنسي . وما الذى يحمله المستقبل لها عندما تسقط الميناء فى أيدى العدو . ان فرنسا ليست الا نصف وطن لها .

فسألته :

ـ وهل سيسقط الميناء . .

ـ انك صحفى . . وأنت تعرف اكثر منى اننا لن نستطيع أن نفوز وأنت تعلم أن الطريق الى هانوى يقطع كل ليلة وتزرع فيه الألغام . وأنت تعلم أننا نفقد فى كل سنة دفعة كاملة من خريجى كلية سان سير .

وكنا قد أوشكنا أن نهزم سنة ٩٥٠ ـ ولقد أمكن الجنرال دى لاترتاسينى أن يمنحنا سنتين من الفخار . ذلك كل ما فى الأمر . وعلينا أن نواصل القتال حتى يأمرنا السياسيون بالتوقف . ومن المحتمل أن يتفقوا على الأسس التى كان من الممكن أن يتفقوا عليها فى « البداية » جاعلين من كل هذه السنوات عبثا لا طائل تحته .

وكان وجهه القبيح الذى غمز لى به قبل انقضاضه على هدفه يحمل نوعا من شدة المحترف كأنه قناع من أقنعة عيد الميلاد حيث تبدو عينا الطفل من خلال ثقوب فيه .

وقال :

ـ أنت لا تستطيع أن تفهم هذا العبث يافوئر لأنك لست واحد منا .

قلت :

ـ ان هناك اشياء اخرى فى حياة الانسان تجعل من السنوات ومرورها عبثا لا طائل وراءه .

فوضع يده على ركبتى بنوع من العطف والحماية كأنما هو الأكبر سنا وقال :

ـ خذها معك الى الوطن »

الفصل الخامس

لقد كان الأمر غريبا عند عودتى الى سايجون دون أن يكون أحد فى انتظارى وفى المطار تمنيت لو أن هناك مكانا آخر أطلب من التاكسى أن يوصلنى اليه غير سكنى فى شارع كاتينات . وقلت لنفسى : « هل الى أصبح أقل مما كان عليه قبل رحيلى ؟ » . وحاولت أن أجعل نفسى تعتقد ذلك . وعندما وصلت الى المنزل لاحظت أن الباب مفتوح وملأ نفسى شعور بالأمل الكاذب وحتى أصل من الباب كان من الممكن أن يظل الأمر حيا . وسمعت صوت كرسى يتحرك وعندما وصلت الى الباب وأيت زوجا من الأحذية لغير امرأة ودخلت بسرعة وكان هو « بيل » الذى رفع جسمه الضخم من فوق الكرسى الذى اعتادت فونج أن تجلس فيه وقال :

ـ هالو . توماس .

ـ هالو بيل .. كيف دخلت هنا ؟ .

فقال :

ـ لقد قابلت دومنجيز الذى كان آتيا ببريدك وطلبت منه أن يتركنى انتظر .

ـ هل نسيت فونج شيئا .

ـ لا .. ولكن چو قال لى انك ذهبت الى المفوضية وفكرت فى أنه أسهل أن تتكلم هنا .

قلت :

ـ نتكلم عن ماذا .

فبدأ عليه أنه قد فقد تفكيره كصبى طلب منه أن يتكلم فى احتفال فى المدرسة ففقد القدرة على تخير الكلام اللائق . ثم قال :

ـ لقد كنت مسافرا .

ـ نعم . وأنت .

ـ آه . . انى كنت أتنقل هنا وهناك .

ـ أما زلت تلعب بالبلاستك ؟ .

فابتسم ابتسامة غير سعيدة وقال :

ـ ان خطاباتك موجودة هنا .

وكنت أستطيع أن أرى من أول نظرة انه ليس هناك شيء يثير اهتمامي فخطاب من الجريدة فى لندن وخطابات يبدو أنها مطالبات بسداد ديون على . وخطاب آخر من المصرف الذى أتعامل معه . وقلت لبيل :

ـ كيف حال فونج ؟ .

فقال :

ـ أوه . . انها بخير .

وضم شفتيه كما لو كان قد تكلم أكثر مما يجب . وقلت له :

ـ اجلس يا بيل واسمح لى بأن أنظر فى البريد فهذا الخطاب من ادارة الجريدة .

فتحت الخطاب وكان من رئيس التحرير ويقول :

انه راعى ما جاء فى خطابى الأخير وبالنسبة لتأزم الموقف وتعقده فى الهند الصينية بعد موت الجنرال دى لاتر وتراجع القوات الفرنسية من « هوابنه » فانه يتفق معى فى اقتراحاتى وأنه قد عين محررا للشئون الخارجية بالجريدة بصفة مؤقتة وانه يوافق على بقائى فى الهند الصينية مدة عام على الأقل .

وقال فى خطابه :

« سوف يبقى مقعد المحرر الخارجى دافئا فى انتظارك » .

وكان يعتقد أننى أهتم بالوظيفة التى عرضها على بالجريدة فجلست أمام بيل وقرأت الخطاب مرة أخرى الذى وصل متأخرا

بعض الشيء . ولفترة وجيزة كان لدى شعور من استيقظ لتوه قبل أن يتذكر الأحداث . وقال بيل :

ــ هل الأخبار سيئة ؟ .

ــ لا ..

وقلت لنفسي : ان الأمر لن يكون فيه فرق على كل حال .. فان الاقامة لمدة سنة لا يمكن أن تساوى عرضا بالزواج . وسألته :

ــ هل تزوجت بعد ؟ .

فقال وقد احمر وجهه وكان ذا قدرة عجيبة على الخجل :

ــ لا .. والحقيقة اننى أحاول الحصول على اجازة خاصة أم يمكننا أن نتزوج في الوطن زواجا صحيحا .

وقلت :

ــ هل يكون الزواج أكثر صحة لو تزوجتما فى الوطن ؟.

فقال :

ــ حسنا .. انه من الصعب أن أقول لك أنت هــذه الأشياء ياتوماس ولكنه نوع من الاحترام . فان أبى وأمى سوف يكونان حاضرين فهى فرد جديد سينضم للعائلة . وهذا شيء مهم جدا بالنسبة للماضى .

فقلت له :

ــ الماضى .

ــ أنت تعــرفــ ماذا أعنى . فانا لا أريد أن أتركها خلفى وقد لوثتها شائبة .

ــ هل ستتركها هناك عند عودتك ؟ .

ــ أعتقد هذا .. فان أمى سيدة رائعة . وعليها أن تريها المكان وتقدمها الى الجيران والمعــارف . وأنت تعلم ذلك . انه نوع من ادماجها في الحياة وهى بذلك تساعدها على اقامة بيت لى .

ولم أكن أعرف هل أرثى لفونج أولا ؟ . فلقد كانت تأمل رؤية

ناطحات السحاب ، وتمثال الحرية . ولكن لم يكن لديها فكرة عما يمكن أن تلاقيه هناك : البروفسور ومسز بيل وأناقة السيدات . هل سيعلمونها لعبة « الكافاستا » . وتذكرت رؤيتى لها فى أول ليلة فى ملهى « العالم الكبير » فى ثوبها الأبيض وهى تتحرك برشاقة وقد بلغت من العمر ثمانية عشر ربيعا . وفكرت فيها منذ شهر واحد وهى تساوم البائع على ثمن اللحم فى محل الجزارة الذى بشارع « السوم » هل ستحب المحال الصغيرة البيضاء الخاصة « بالبقالة » فى « نيوانجلند » بأمريكا حيث تلف حتى الخضراوات فى ورقة سلوفان . ربما يعجبها ذلك . وبغرابة وجدت نفسى أقول له ما كان بيل يقوله لى منذ شهر مضى :

ـ كن صبورا معها يا بيل وسهلا . ولا تحاول أن تفرض عليها الأوضاع . فهى قد تجرح وتتألم مثلك ومثلى تماما .

ـ بالطبع . . بالطبع يا توماس .

ـ انها تبدو صغيرة وقابلة للكسر وهى ليست كنسائنا فى الغرب ولكن لا تعاملها على أنها شيء للزينة .

ـ ان هذا مضحك يا توماس . كيف تحولت الأشياء . فلقد كنت أخشى هذه المقابلة وظننت أنك ستكون عنيفا .

ـ لقد كان لدى الوقت للتفكير هناك فى الشمال . وكانت هناك امرأة . وانه لشيء جميل أن تذهب معك فونج . ربما كنت أنا تركتها مع شخص مثل جرانجر .

ـ وهل نستطيع أن نظل أصدقاء يا توماس ؟

ـ نعم . . بالطبع . . ما عدا أنى أفضل الا أرى فونج ثانية . وهنا ما يكفى لتذكيرى بها ويجب أن أبحث عن بيت آخر عندما يكون لدى الوقت .

فاعتدل فى جلسته ثم وقف وقال :

ـ انا في غاية السرور ياتوماس . ولا أستطيع أن أعبر الك عن سروري . ولقد قلت ذلك قبل هذه المرة وهو انني كنت أود لو كان شخصا غيرك .

ـ انا مسرور . انه انت يا بيل .

وكانت المقابلة على غير ما توقعت . وكانت سذاجته التي تضايقني منه قد فعلت فعلها في نفسي . وبحكم من أعماق نفسي قد انتهيت الى صفه ، فلقد قارنت مثاليته وأفكاره غير الناضجة القائمة على أعمال يورك هاردنج بواقعيتي الجافة ، فوجدت انه برغم معرفتي للحقائق فان له الحق كذلك في أن يكون شابا وأن يخطىء وأنه أفضل مني بالنسبة لفتاة صغيرة تقضي معه حياتها .

وتصافحنا . ولكن نوعا من الخوف لم يكتمل بعد في نفسي جعلني اصحبه الى أول السلم وأناديه . وربما كان هناك في أعماق الانسان متنبىء بالأحداث مثلما يكون في نفسه حكم على الأشياء حيث يقرر حكمه الصحيح على الأفعال . وقلت له :

ـ بيل . . لا تعتمد كثيرا على أقوال يورك هاردنج .

فرفع بصره الي من أول درجة في السلم وقال :

ـ يورك ؟ .

فقلت :

ـ اننا نحن ـ الانجليز المستعمرين القدامى ـ الذين سبقوكم في هذا المجال يا بيل . وقد تعلمنا حقيقة واحدة وهي ألا نلعب بأعواد الثقاب وهذه القوة الثالثة التي تتكلم عنها جاءت من خلال صفحات كتاب ليس الا .

وبدا لي كأنه ينظر الي من خلال فتحة صندوق بريد ليرى من الذي يتكلم وبعد أن رآه أغلق غطاء فتحة الصندوق لكيلا يرى المتكلم .

وقال وعيناه غير مرئيتين :

ـ انا لا أعرف ماذا تقصد يا توماس .

ـ قنابل الدراجات هذه . لقد كانت مزاحا جميلا برغم أن رجلا فقد قدمه . ولكنك يابيل لا يمكنك أن تثق بالجنرال ثى . فان أمثاله لن ينقذوا الشرق من الشيوعيين ونحن نعرف أمثالهم .

فقال :

ـ نحن ؟ .

فقلت له :

ـ الاستعماريين القدامى .

ـ كنت أظن انك لا تنضم الى أحد الطرفين .

ـ أنا لا أنضم الى أحدهما يا بيل . ولكن اذا أراد شخص في الفوضية أن يعقد الأمور فليكن ذلك « جو » . اذهب الى الوطن مع فونج وانس القوة الثالثة .

فقال :

ـ انني بالطبع أقدر نصائحك وسوف أراك عن قريب .

ـ اعتقد هذا .

ومرت الأسابيع ولم أستطع أن أعثر على سكن جديد . وليس ذلك بسبب أنه لم يكن لدى وقت فان الأزمة السنوية للحرب قد مرت . وخيم الجو الرطب الحار على مناطق الشمال وتراجع الفرنسيون عن « هوابنه » وحملة الأرز انتهت لا تونكين . وكان باستطاعة دومنجيز أن يرقب كل ما يجرى فى الجنوب . وأخيرا تمكنت من حمل نفسى على رؤية مسكن جديد فى بناء حديث فى الناحية الأخرى من شارع كاتينات ويجاور الكونتننتال . وهو بناء أقيم زمن معرض باريس الدولى فى سنة ٩٣٤ وكان قد بناه أحد زراعي المطاط كمقر له فى سايجون وكان يربط بيمه بكل ما يحويه من اثاث ومعدات . وكان بالمسكن لوحات محفورة من معروضات صالون باريس بين سنة ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ ، وكانت أحسن اللوحات فى المجموعة لوحة تمثل امرأة ذات صدر ممتلىء « وتسريحة » غريبة للشعر ، ورداء صغير حول نصفها الأسفل يكشف عن الجزء

الأكبر من بطنها . وفي غرفة الحمام كان المالك الأصلي للمنزل أكثر جراة بمجموعته من الأزواب . وقلت له :

ـ هل تحب الفن .

وتراجع الرجل كأنه زميل مشترك في مؤامرة . وكان بدينا ذا شارب أسود وشعره خفيف . ثم قال :

ـ ان أحسن صوري في باريس .

ورأيت « طفاية » للسجائر بالغة الطول في حجـرة الجلوس وهي تمثل امرأة عارية « والطفاية » محفورة في شـعرها . كما شاهدت تحفا صينية تمثل فتيات عاريات يحتضن نمورا . وفتـاة نصفها الأعلى من جسـدها عار وهي تركب دراجة . وفي غرفة النوم وفي مواجهة سريره الضخم علقت لوحة زيتية تمثل فتاتين عاريتين تنامان معا . وسألته عن ثمن المسكن بدون التحف ولكنه لم يرض الا ببيع الاثنين معا . وسألني :

ـ أأنت من هواة جمع التحف ؟ .

فقلت :

ـ لا ...

فقال :

ـ ان لدي مجموعة من الكتب أستطيع أن أتركها برغم أني سوف آخذ بعضها الى فرنسا .

وفتح مكتبة لها «واجهة» زجاجية واخرج منها مجموعة فاخرة من المجلات مثل « أفروديت » و « نانا » ومجموعة أخرى من الكتب .

وقال :

ـ لو أنك عشت في الأقاليم الحارة بمفردك لعرفت أن مثل هذه المجموعات تعد صحبة يقطع الانسان بها الوقت .

وفكرت في فونج بسبب بعدها عني . وقلت للرجل :

ـ لا أعتقد أن الجريدة التي أعمل فيها تسمح لي بشراء مجموعة أقنية .

فقال :

ـ ان المجموعة لن تذكر في الايصال .

وكنت مسرورا لأن بيل لم ير هذا الرجل . ولم يكن بيل في حاجة الى مقت أشد للاستعماريين القدامى حتى يراه .

وعندما خرجت من المنزل كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف وتوجهت الى أحد المقاهي لتناول قدح من البيرة . وكان المحل الذي قصدته مجمعا للنساء الأوربيات والأمريكيات في المدينة وكنت متأكدا من أنني لن أرى فونج هناك . بل كنت أعرف بالتأكيد أين تكون فونج في مثل هذا الوقت من النهار ولم تكن هي بالفتاة التي تغير من « عاداتها » ولذلك فاني عبرت الطريق لأتجنب محل بيع اللبن حيث تشرب مشروبها المفضل من الشكولاتة المثلجة في هذا الوقت من النهار وجلست على المنضدة المجاورة فتاتان أمريكيتان وهما في غاية الأناقة والنظافة برغم الحر اللافح ويتناولان الآيس كريم ، وكانت كل منهما تحمل حقيبة على كتفها الأيسر وعلى كل حقيبة صورة نسر من النحاس ـ أما سيقانهما فكانت طويلة ورشيقة وأخذتا تتناولان الآيس كريم وقد ركزتا اهتمامهما فيه كأنهما تجريان تجربة في أحد معامل الكليات . وساءلت نفسي : هل هما من زميلات بيل . فلقد كانتا رائعتين ووددت لو تمكنت من ترحيلهما الى الوطن .. وانتهتا من تناول الآيس كريم ونظرت أحداهما الى ساعتها وقالت :

ـ يحسن بنا أن نذهب لكي نكون في الجانب الآمن .

وتعجبت أي ميعاد هما مرتبطتان به . وقالت احداهما :

ـ أن وارن قال : انه يجب الا نتأخر عن الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة .

فردت الأخرى .

ـ لقد فات الوقت .

ـ ان في البقاء لمتعة . وانا لا أعرف عن حقيقة الأمر شيئا ، هل تعرفين أنت ؟ .

ـ ليس بالضبط .. ولكن وارن قال يحسن بنا الا نفعل .

ـ هل تعتقدين أنها مظاهرة ؟ .

وقالت الأخرى بألم ظاهر كسائحة رأت الكثير من الكنائس :

ـ لقد رأيت مظاهرات كثيرة .

ووقفت هذه ووضعت على المائدة ثمن ما شربنا . وقبل أن تغادر المقهى نظرت حولها وعكست المرايا صورتها من كل اتجاه . ولم يكن في المقهى سواي وفرنسية متوسطة العمر منهمكة في اصلاح زينتها بعناية وبدون فائدة . أما هاتان الأمريكيتان فلم تكونا تحتاجان الى زينة من نوع ما . بل كل ما كان تحتاجان اليه هو امرار قلم الروج بسرعة على الشفتين وامرار المشط خلال الشعر . ولمدة لحظة استقر نظر تلك الواقفة علي . ولم تكن نظرتها نظرة امرأة بل نظرة رجل . صريحة مستقيمة تنتظر نوعا من العمل . ثم استدارت بسرعة الى زميلتها وقالت :

ـ يحسن بنا أن نذهب .

ورقبتهما بكسل وهما تخرجان جنبا الى جنب الى الشارع المشمس .

وفجأة انهار هذا العالم حولي . فقد تناثرت المرايا من حولي وطارت شظاياها الى حيث جلست وسقطت الفرنسية على الأرض بين حطام المقاعد والمناضد وكانت حقيبتها ما زالت مفتوحة في حجري . أما أنا فقد ظللت جالسا حيث كنت برغم أن المنضدة التي كنت أجلس عليها قد انضمت الى الحطام حول الفرنسية . وملأ جو المقصف صوت غريب . صوت نافورة يتدفق منها الماء بانتظام رتيب ونظرت ناحية البار ورأيت صفوفا من الزجاجات المحطمة أخذ ينساب منها هذا الخرير والصفرة غير الصافية للباستيس تنساب

كلها على الأرض وجلست الفرنسية ونظرت بهدوء حولها الى حقيبة يدها وقمت وناولتها اياها وشكرتني وهي جالسة على الأرض وربما لم أسمعها جيدا . وكان الانفجار قريبا جدا لدرجة أن طبلتي أذني لم تعودا الى حالتهما من وقع الضغط الا بعد مدة . وساءلت نفسي : أمهزلة اخرى من مهازل البلاستيك ؟ وماذا ينتظر مستر هونج مني أن أكتب الآن . وعندما وصلت الى الميدان دل الدخان الكثيف على أن المسألة لم تعد هزلا . وكان الدخان يتصاعد من السيارة الواقفة في الموقف المعد لها أمام المسرح القومي . وكانت أجزاء السيارات المحطمة متناثرة على أرض الميدان وهناك رجل قد طارت ساقاه مازال يتلوى على الأرض بجوار حدائق الزينة . وكان الأهالي يتجمعون من شارع كاتينات ومن شارع بونارد ودوى صوت صفارات سيارات البوليس وأجراس عربات الاسعاف والحريق التي جاءت من كل ناحية ولفترة وجيزة نسيت ان فونج تكون « عاده » في محل اللبن من الناحية الأخرى من الميدان وكان الدخان يحجب الجانب الآخر من الميدان ولا أستطيع أن أراه .

وخطوت ناحية الميدان وأوقفني أحد رجال البوليس الذين ضربوا نطاقا حول حافة الميدان لمنع الأهالي من التجمهر وأخذ حملة النقالات لحمل الجرحى يصلون . وقلت لرجل البوليس امامي :

— ان لى صديقا في الجانب الآخر فدعني أعبر اليه .

فقال :

— ان كل فرد هنا لديه أصدقاء .

وتنحى جانبا ليدع أحد القسس يمر وحاولت أن أتبع القسيس غير أنه جذبني فقلت له :

— انني ممثل الصحافة .

وبحثت عيناى في محفظتي عن بطاقة تحقيق الشخصية غير أني لم أعثر عليها وساءلت نفسي : هل خرجت من المنزل اليوم بدونها ؟ .

وقلت له :



— على الأقل قل لى ما الذى حدث لمحل اللبن »

وانقشع الدخان بعض الشيء وحاولت أن أرى غير أن الجماهير حالت بينى وبين الرؤية . وقال رجل البوليس شيئاً لم أسمعه .
وقلت له :

— ما الذى قلته ؟ .

فقال :

— لا أعرف .. تراجع الى الخلف . انك تحول بين حملة النقالات وتأدية عملهم .

وساءلت نفسى مرة أخرى .. هل سقطت بطاقتى فى المقهى ؟ واستدرت لكى أعود لأبحث عنها ورأيت بيل وصاح :

— توماس ».

وقلت :

— بيل .. بحق الله أين جواز مرورك . يجب أن نعبر الميدان إلى فونج فى محل اللبن ».

فقال :

— لا .. لا ..

فقلت له :

— بيل .. انها تذهب هناك فى الحادية عشرة والنصف دائماً يجب أن نبحث عنها .

— انها ليست هنا يا توماس ».

— كيف عرفت ؟ أين جواز مرورك ؟ .

— لقد حذرتها عدم الذهاب ».

واستدرت ناحية رجل البوليس وأنا أنوى أن أدفعه جانباً واجرى الى الجانب الآخر للميدان وقد يطلق على الرصاص غير أنى لم أبال . ثم وصلت الى عقلى الباطن كلمة بيل « حذرتها » فساءلت نفسى : ماذا يعنى بكلمة حذرت ».

ـ لقد قلت لها لابد أن تبتعد عن المحلّ هذا الصباح .

وتكاملت الصورة فى ذهنى وقلت :

ـ وكذلك « وارن » من هو « وارن » . لقد حذر هؤلاء البنات كذلك .

فقال :

ـ لست أفهم ما تقول . يجب الا يكون هناك ضحايا أمريكان أليس كذلك ؟ .

وشقت عربة اسعاف طريقها خلال شارع كاتينات الى الميدان وتحرك رجل البوليس الذى منحنى لكى يدعها تمر . وكان رجل البوليس المجاور له مشتبكا فى حوار . فدفعت بيل أمامى فى الميدان . قبل أن يستطيعوا منعنا . وسرعان ما وجدنا أنفسنا ضمن مجموعة من المصابين وكان فى استطاعة البوليس منع أناس جدد من دخول الميدان بسد الطرق المؤدية اليه . ولكن لم يكن فى استطاعته اخلاء الميدان كلية من شاغليه . وكان الأطباء مشغولين عن الموتى بمعالجة الجرحى . وترك الموتى لمن يتعرف عليهم .. وجلست امرأة على الأرض مع ماتبقى معها من طفلها وبنوع من التواضع غطت المرأة باقى اشلاء الطفل بالقبعة العريضة التى تلبسها وكانت جالسة فى صمت وسكون ، والذى أثر فى السكون المخيم على الميدان . وكان الجو يشبه جو كنيسة زرتها مرة فى أثناء القداس وكانت الأصوات تصدر « فقط » من الذين يقومون بنجدة المصابين عدا أفراد متفرقين من الأوربيين الذين كانوا يبكون ثم يعاودون الصمت كما لو خجلوا لتواضع وصبر الشرق وتمالكه لزمام نفسه . ورأيت الجذع الفاقد الساقين بجوار الحديقة مازال يتلوى كفرخ مذبوح فقد رأسه . ومن قميصه عرفت انه سائق عربة . وقال بيل :

ـ انه لفظيع .

ثم نظر الى حذائه المبلول وقال بصوت متحشرج :

ـ ما هذا ؟ .

فقلت له :

ـ أنه دم . ألم تره قبل الآن ؟ .

فقال :

ـ يجب على أن أنظف الحذاء قبل أن أقابل الوزير .

ولا أعتقد أنه كان يفهم ما يقوله . فلقد كان يرى الحرب الحقيقية لأول مرة . فلقد شاهد طرفا منها فى « فات ديم » وعلى كل فان الجنود فى نظره لا أهمية لهم .

وقلت له :

ـ ماذا يمكن ان يفعل بزميل من ديولكتون ؟ .

فأرغمته بوضع يدى على كتفه على أن ينظر حوله وقلت له :

ـ وفى الساعة التى يكون فيها الميدان مملوءا بالأطفال والنساء لأنها الساعة التى يتسوقون فيها حاجاتهم . لماذا اخترعت هذه الساعة ؟ .

فقال :

ـ لقد كان مفروضا أن يكون هنا استعراض عسكرى .

ـ وانت أملت قتل بضعة ضباط . ولكن الاستعراض ألغى بالأمس يا بيل .

فقال :

ـ لم أكن أعرف .

فدفعته الى بقعة مملوءة بالدم حيث كانت نقالة موضوعة وقلت له :

ـ كان يجب عليك أن تكون معلوماتك أصح .

فقال وهو ينظر الى قدميه :

ـ لقد كنت خارج المدينة . وكان يجب عليهم أن يمتنعوا عن وضع القنابل .

فقلت :

ـ وبذلك تفوتهم فرصة مشاهدة هـذا المنظر .. هل كنت تتوقع أن الجنرال ثى تفوته مثل هذه الفرصة ؟ .

ـ ان ما حدث كان أحسـن بالنسبة له من قتل الجنود فى الاستعراض . فالأطفال والنساء جدد فى الحرب ولـكن الجنود قدامى فى الحرقة وان هذا القتل الجماعى سوف يثير صحافة العالم وهذا ما يرمى اليه الجنرال ثى . وأنت بذلك قد ساعدته على اظهار نفسه على «الخريطة» يابيل ـ لقد وجدت القوة الثالثة التى تبحث عنها . اذهب الى المنزل وقل لفونج عن بطولتك الفذة فلقد نقص من بنى وطنها بضع عشرات .

ومر بنا قسيس بدين وهو يحمل شـيئا فوق طبق مغطى «بفوطة» وصمت بيل مدة طويلة وبدا عليه أن لونه شاحب وقـد أوشك على الاغماء وقلت لنفسى :

« وما الفائدة ؟ سيظل دائما ساذجا وانت لا تستطيع أن تلوم السذج فهم دائما أبرياء وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تسيطر عليهم أو تمحوهم والسذاجة نوع من الجنون . »

ثم قال بيل :

ـ ما كان يجب أن يفعـلوا ذلك ، وخاصـة ثى . لابد أن الشيوعيين خدعوه .

وكان يبدو بكلامه هذا أنه محصن بنواياه الطيبـة وبجهله وتركته واقفا فى الميدان وسرت فى شارع كاتينات حيث تسد الكاتدرائية الحمراء الطريق . وكان الناس يتدفقون عليهـا . وكان عزاء لهم أن يصلوا من أجل الموتى وكان لدى ما أكون شاكرا عليه . ألم تكن فونج حية ؟ ألم تحذر الذى حدث ؟ ولـكن لم يبرح مخيلتى صورة الجذع الملتوى بجوار الحديقة وبقايا الطفل فى حجر أمه . وغير ذلك ممن لم يكونوا مهمين ولم يحذرهم أحد

ولو سار العرض العسكرى كما كان متوقعا ألم يكونوا هم موجودين كذلك لمجرد التطلع وحب المشاهدة للجنود وسماع الخطب ورمى الزهور . وماذا يمكن أن تفعله قنبلة زمنية زنة مئتى رطل ؟ وكم كولونيل يموتون لكى يبرر بموتهم بعشرة أشلاء طفل فى حجر أمه أو قطع ساقى سائق عربة يكسب رزقه من ساقيه وجره العربته .. ان كل هذا لا يهم فى نظر البعض ، وأوقفت عربة بموتور وطلبت من سائقها أن يصحبنى الى وصيف « ميتو بالميناء » .

الفصل السادس

لقد اعطيت فونج نقودا لتصحب اختهما الى السينما حتى تكون بعيدة عما يحدث وفى سلام وخرجت لتناول العشاء مع «دومنجيز» وكنت فى غرفتى ثانية عند العاشرة تماما عندما حضر «فيجو» واعتذر لعدم قبوله كأسا وقال :

ـ انه تعب للغاية .

وتناول كأس قد يجلب النعاس الى عينيه ولقد كان اليوم حافلا بالأحداث وطويلا بالنسبة له وسألته :

ـ حوادث قتل وموت فجائى ؟

ـ لا . سرقات صغيرة ، وبعض حالات الانتحار ، فهؤلاء الناس من أهل البلاد يحبون المغامرة وعندما يفقدون كل شيء فانهم يقتلون أنفسهم وربما لم أكن جعلت من نفسى رجل بوليس ، لو عرفت الوقت الطويل الذى على أن أقضيه فى «المشرحة» بحكم وظيفتى فأنا لا أحب رائحة الامونيا .. وربما أرغب الآن فى قدح من البيرة .

ـ ليس لدى ثلاجة ، ولذا فليس لدى بيرة .

ـ على كل .. فان كأسا من الويسكى تكفى .

وتذكرت الليلة التى توجهت فيها معه الى «المشرحة» وأخرجوا فيها جثة بيل كأنه صينية من مكعبات الثلج وسألنى «فيجو» :

ـ وعلى ذلك فأنت لن ترحل الى الوطن ؟

ـ أنك تسأل عنى ؟

ـ نعم .

ومددت يدي بكأس الويسكي اليه حتى يرى مدى ثبات أعصابي وقلت له :

ـ فيجو . اني أود أن تقول لي : لماذا تعتقد أن لي صلة بمقتل بيل ؟ . وهل ذلك له دافع وهو اني أريد أن أسترد فونج ؟ وهل تتخيل أن قتله كان انتقاما لفقدي اياها ؟

فقال :

ـ لا . فأنا لست غبيا . فالانسان لا يأخذ كتاب عدوه كشيء للذكرى وهاهوذا كتابه على رف كتبك « مسئولية الغرب » من هويورك هاردنج ؟

فقلت له :

ـ انه الرجل الذي تبحث عنه يا فيجو ـ انه هو الذي قتل بيل من مسافة بعيدة .

ـ اني لا أفهم ما تقول .

ـ انه صحفي من نوع راق وهم يطلقون عليه اسم مراسل ديبلوماسي فهو تسيطر عليه فكرة ما . ثم يحاول أن يغير من كل موقف لكي يجعله يتمشى مع فكرته . وقد جاء بيل هنا ورأسه مملوء بأفكار يورك هاردنج ـ وقد مر هاردنج بسايجون مدة أسبوع في طريقه من بانجكوك الى طوكيو وقد أخطأ بيل بمحاولة تطبيق نظرية هاردنج ـ فلقد كتب هاردنج عن قوة ثالثة تحمل معنى التوازن بين الشيوعيين وبين الاستعماريين القدامي وقام بيل بتكوين قوة ثالثة من رئيس عصابات صغير معه ألفان من الرجال وزوج من النمور المستأنسة . وكانت النتيجة أنه اختلط عليه الأمر .

فقال « فيجو » :

ـ أما أنت فلا يختلط عليك الأمر أبدا .

ـ لقد حاولت ألا أزج بنفسي في مشاكل .

فقال :

ـ ولكنك لم تنجح يا فولر .

ولسبب ما فكرت في الكابتن « تورين » والليلة التي قضيناها معا والتي بدت كأنما مرت عليها سنوات . ترى ما الذى يرمي اليه فيجو .. هل يقصد أننا سوف نجد أنفسنا مشتركين في الصراع أن عاجلا أو آجلا تحت دافع شعور ما ؟ وقلت :

ـ انك تصلح لأن تكون قسيسا صالحا يا فيجو . فأنت تستطيع أن تجعل المرء يعترف لك بكل شيء لو كان لديه ما يعترف به .

ـ اني لم أطلب يوما ما أى اعتراف .

ـ ولكنك تتلقى هذه الاعترافات .

ـ من وقت لآخر .

ـ هل لأن وظيفتك كالقسيس تجعلك لاتدهش من أى أعتراف بل تكون عطوفا عندما يقول لك المجرم : يا سيدى . يجب أن أقول لك بالضبط لماذا حطمت رأس السيدة العجوز فتقـول لـه نعم يا جوستاف على مهلك وقل لى لماذا فعلت ذلك .

فقال فيجو :

ـ أن لك خيالا خصبا . ألم تكن تسـكر الآن يافولر ؟ .

ـ من المؤكد أن السكير غير حكيم بالنسبة للمتهم وخاصة اذا سكر مع ضابط البوليس .

ـ أنا لم أذكر قط أنك مجرم .

ـ ولكن افترض أن السكر قد جعلني أرغب في الاعتراف فان في مهنتك بعكس مهنة القسيس ليس هناك أسرار للاعتراف .

فقال :

ـ أن السرية نادرا ما تكون مهمة بالنسبة لرجل يعترف حتى لو كان الذى يعترف له قسيسا . فان له دوافعه الأخرى .

فقلت :

ـ أجل . من أجل اراحة ضميره .

قال :

ـ ليس دائما . فأحيانا يريد المذنب أن يرى نفسه فى وضوح كما هو عليه . وأنت لست مجرما يافولر ولكن أحب أن أعرف لماذا كذبت على . فلقد رأيت بيل فى ليلة موته .

قلت :

ـ ما الذى يجعلك تظن ذلك ؟

ـ أنا لا يخطر على ذهنى أنك قتلته . فأنت لا تستطيع أن تستخدم فى قتله سونكى . هذه هى المعلومات التى وصلت الينا ، ولقد قلت لك ذلك برغم أن هذا لم يكن سبب موته فلقد مات غرقا .

ورفع فيجو كأسه لأصب له كأسا أخرى وقال :

ـ دعنى أستعد ما حدث . لقد تناولت كأسا فى الكونتيننتال فى الساعة السادسة وعشر دقائق أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ فتابع كلامه : وفى السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنت تتكلم مع صحفى آخر على باب فندق الماجستك .

ـ نعم . مع ويلكنز . لقد قلت لك ذلك يا فيجو قبـــل هذه الليلة .

ـ نعم . فلقد تحريت عن صحة أقوالك ـ وانه لأمر عجيب أن تحمل هذه التفصيلات الدقيقة فى رأسك .

فقلت له :

ـ اننى مراقب صحفى يافيجو .

ـ ربما كان التوقيت فى حركاتك ليس مضبوطا . ولكن ما من أحد يلومك لو قضيت ربع ساعة هنا وعشر دقائق هناك ، فأنت ليس لديك سبب لكى تعتقد أن الوقت أهمية برغم أن الأمر يشك فيه جدا او أن توقيتك لحركاتك كان مضبوطا جدا .

فقلت له :

ـ ألم يكن توقيتى مضبوطا جدا ؟

ـ ليس مضبوطا تماما . فلقد كانت الساعة السابعة وخمس دقائق عندما كنت تتكلم مع ويلكنز .

فقلت :

ـ فرق عشر دقائق أخرى ؟

فقال :

ـ بالطبع وكما قلت فان الساعة كانت تمام السادسة عندما وصلت الى الكونتننتال .

فقلت :

ـ ان ساعتى سريعة بعض الشيء . كم الساعة لديك الآن ؟

فنظر فى ساعته وقال :

ـ العاشرة وثمانى دقائق .

فقلت له :

ـ ولكن ساعتى تشير الى العاشرة وثمانى عشرة دقيقة . الا ترى ؟

ولم يهتم فيجو بالنظر الى ساعتى وقال :

ـ اذن فالوقت الذى كنت تتكلم فيه مع ويلكنز كان فى الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة على حسب ساعتك . ان هذه تعتبر غلطة كبيرة أليس كذلك ؟

فقلت :

ـ ربما ضبطت الوقت فى عقلى . وربما ضبط ساعتى فى هذا اليوم . فأنا أحيانا أفعل ذلك .

فقال فيجو :

ـ ان ما يهمنى . هل لى فى قليل من الصودا ؟ فلقد أعطيتنى الويسكى قويا هذه المرة وهل معنى ذلك انك غاضب منى ؟ . فان الاستجواب ليس شيئا محببا كما أستجوبك الآن .

فقلت له :

ـ انى أجد الأمر مسليا كما لو كان قصة بوليسية . وعلى كل فأنت تعرف أنى لم أقتل بيل . وأنت قلت ذلك.

فقال فيجو :

ـ أنا لم أعلم أنك لم تكن حاضرا مقتله .

فقلت :

ـ أنا لا أعرف ما الذى تريد أن تثبته بأن تظهـــر أنني كنت متأخرا أو متقدما عشر دقائق هنا أو خمس دقائق هنـــاك .

فقال :

ـ ان ذلك يمنح الانسان وقتا أطول . فهى ثغرة فى التوقيت.

ـ وقتا لعمل أى شىء ؟

ـ لأن يحضر بيل ويراك .

ـ لماذا ترغب كثيرا فى اثبات ذلك ؟ .

ـ بسبب الكلب .

ـ وبسبب الطين الذى وجد بين مخالبه .

ـ انه لم يكن طينا ذلك الذى وجدناه بين مخالبـــه . بل كان أسمنتا . هل فهمت ؟ ففى مكان ما فى تلك الليلة عندما كان الكلب يتبع بيل فان الكلب مر على اسمنت مبتل . وتذكرت أنه فى «الطابق» الأرضى الذى تسكنه كان هناك بعض البنائين يعملون . وقد رأيتهم الليلة كذلك فى أثناء حضورى اليك فهم يعملون ساعات طويلة فى هذه البلاد .

فقلت :

ـ انى لأعجب كم بيتا فى سايجون الآن فيه بناءون وحوله أسمنت مبلول . هل ذكر أحدهم رؤية الكلب هنا ؟.

فقال فيجو :

ـ بالطبع لقد سألتهم عن ذلك . ولكنهم لو رأوا الكلب هنـــا ما قال لى أحد منهم ذلك . فأنا رجل بوليس .

وتوقف عن الكلام واضطجع في مقعده وحدق بالنظر الى الكأس التى فى يده وأحسست بأن تفكيره قد انصرف الى شيء بعيد وزحفت ذبابة على ظاهر يده ولم يحاول أن يبعدها . وشعرت بقوة غير دافعة وغير مرئية . وربما كان يدعو الله فى سره .

ووقفت وتوجهت ناحية غرفة النوم .. لم يكن فى الغرفة شيء أريده عدا البعد مدة عن هذا الصمت الجاثم على الكرسى .. وكانت البومات الصور الخاصة بفونج قد عادت ثانية الى مكانها على الرف . وقد تركت لى تلغرافا بين أوانى المستحضرات التجميلية التى تستخدمها وربما كانت مرسلة من ادارة الجريدة فى لندن . ولم تكن لدى رغبة فى الاطلاع عليها وكان كل شيء يبدو كما كان عليه قبل أن يظهر بيل فى أفق حياتها . فالغرف لا تتغير وظل ما تزين به الغرفة فى مكانه فلا تغيير عدا أن القلب يذوى .

وعدت الى غرفة الصالون ورفع فيجو الكأس الى شفتيه وقلت له :

ـ ليس لدى ما أقوله لك . ليس لدى شيء على الاطلاق .

فقال :

ـ اذن سوف ارحل . ولا أعتقد أننى سأضايقك مرة أخرى .

وعند الباب استدار ثانية كما لو كان لا يريد أن يقطع الأمل فى الوصول الى شيء وقال :

ـ لقد كان غريبا منك أن تذهب لترى الرواية التمثيلية فأنا لا أعتقد أنك تهتم بروايات الدراما . ماذا كانت الرواية ؟ هل كانت « روبن هود » ؟

فقلت :

ـ أعتقد أنها رواية « سكاراموش » وكنت أشعر بأنى فى حاجة الى ما يشغل ذهنى .

فقال :

ـ الى ما يشغل ذهنك ؟.

فقلت ، أشرح له ما أقصده بحذر ؟

ـ نعم . فنحن جميعا لدينا مايشغلنا يافيجو .

وعندما رحل فيجو كانت هناك ساعة مازالت باقية على مجيء فونج والشعور بالحياة . وكان غريبا أن اقلقتني زيارة فيجو . فلقد بدا لى كأنه شاعر قد أحضر لى ما نظمه لكى افقده وبسبب اهمال منى قد حطمت ما نظمه . فلقد كنت رجلا بلا عمـــل . والمـــرء لا يستطيع أن « يعتبر » الصحافة عملا جديا ولكنى أستطيع أن أرى معنى العمل الجدى لدى رجل آخر والآن وقد رحل فيجـو لكى يحفظ ملفه الذى لم يستكمل وددت لو أنه كان لدى الشجاعة لكى أناديه وأقول :

ـ انك على حق ـ فلقد رأيت بيل فى ليلة مقتله .

الفصل السابع

فى طريقى الى « رصيف » الميناء مررت بعدة عربات للاسماك آتية من ناحية الحى الصينى قاصدة الميدان . والانسان يستطيع أن يقيس مدى الاشاعات بالمشاعر التى تظهر على وجوه الناس فى الشوارع . وعندما وصلت الى الحى الصينى كان فى امكانى معرفة الأخبار . فالحياة متدفقة وطبيعية وغير معوقة . فما من أحد كان يدرى شيئا . ووجدت سكن المستر شو وصعدت الى منزله ولم يتغير شىء منذ زيارتى الأخيرة . فالكلب والقطة يتحركان من الأرض الى الصناديق ثم الى الحقائب . كما لو كانا زوجا من الفرسان فى لعبة شطرنج . وكان الطفل يزحف على الأرض والرجلان العجوزان مازالا يلعبان لعبتهما . ولم يكن غائبا سوى الشباب من أهل البيت وماكدت اظهر فى مدخل الباب حتى أخذت امرأة تصب الشاى فى القدح وجلست السيدة العجوز على السرير ونظرت الى قدميهما وسألت :

— هل المستر هنج موجود ؟

وهززت رأسى ممتنعا أن أتناول الشاى فلم اكن فى حالة تسمح لى بأن أبدأ فى سلسلة من شرب أقداح الشاى المر . وقلت بالفرنسية :

— انى أرغب فى مقابلة المستر هنج .

وكان يبدو مستحيلا ان افهمهم ضرورة رؤيتى له ، غير أن رفضى لتناول الشاى قد سبب بعض الانزعاج ، أو ربما كنت مثل بيل يوجد دم على حذائى وعلى كل فانه بعد تأخير قليل قادتنى احدى النسوة الى الخارج وهبطنا السلم وقادتنى خلال شارعين

مزدحمين بالأعلام المرفوعة والحركة وتركتني أمام مايطلق عليه في وطن بيل على ما أعتقد « صالون جنازات » وهو محل مملوء بالجرار الفخارية الضخمة حيث توضع عظام الموتى من الصينيين وقلت لأحد الصينيين الواقفين بالباب :

ـ أين مستر هنج ».

وخيل الى ان التوقف فى هذا المكان توقف مناسب في يوم بدأ بمشاهدة مجموعة زارعات المطاط من النساء ثم برؤيةالأجساد المتناثرة في الميدان وأخيرا برؤية جرار دفن الموتى لدى التاجر الصيني . ونادى شخص ما من الداخل وتنحى الصيني جانبا وقال «ادخل» ورأيتهنج قادما نحوى بأدبه المعتاد ثم قادنى الى حجرة صغيرة مصفوف فيها كراسي محفورة غير مريحة منالكراسي الصينية التي تجدها في كل بيت صيني بدون استعمال . ولكنى رأيت أن هذه الكراسي كانت مشغولة فقد رأيت خمسة أقداح صغيرة على المنضدة ومنها اثنان لم يتم شرب الشاي المصبوب فيهما وقلت :

ـ لقد قطعت عليكم اجتماعكم ».

فقال المستر هنج :

ـ انها مسائل تجارية غير ذات أهمية . وأنا أكون مسرورا دائما بمقابلتك يا مستر فولر .

فقلت :

ـ لقد جئت من ميدان جارنيير ».

فقال :

ـ هكذا ظننت ».

ـ لقد سمعت ما حدث .

ـ لقد أخبرني أحدهم تليفونيا .. ورأيت من الأفضل البعد عن منزل المستر شو لفترة ما وسوف يكون البوليس مشغولا بالقبض على كثيرين اليوم ».

فقلت له :

ـ ولكنك لا دخل لك فيما حدث من القاء القنبلة .
فقال :
ـ ان من وظيفة البوليس أن يجد من يلقى اللوم عليه .
ـ لقد كان بيل هو الفاعل مرة أخرى .
ـ نعم انه بيل .
فقلت :
ـ لقد كان شيئا فظيعا ذلك الذى حدث .
فقال :
ـ ان الجنرال ثى ليس بالشخصية التى يمكن التحكم فيها .
فقلت :
ـ ولكن اللعب بقنابل البلاستيك ليس للأطفال القادمين من « بوستس » . من هو رئيس بيل يا هنج ؟
ـ ان لدى الثقة بأن مستر بيل هو سيد نفسه والمسئول عن أفعاله .
ـ ما هى وظيفته ؟ وهل هو فى قسم مكافحة الجاسوسية ؟
ـ ان وظيفته والقسم الذى يتبعه ليسا مهمين .
ـ ما الذى يمكن أن أفعله يا هنج ؟ فانه يجب ايقافه عن هذه الأعمال .
ـ تستطيع أن تنشر الحقيقة فى الجريدة التى تمثلها ـ أو أنك لا تستطيع ؟
فقلت :
ـ ان جريدتى ليست مهتمه بأخبار الجنرال ثى . انها مهتمة بأخبار بنى وطنك ياهنج .
فقال :
ـ هل تريد حقيقة أن يوقف المستر بيل عن الأفعال التى يقوم بها يا مستر فولر ؟
فقلت :

ـ لقد رأيته يا هنج وهو واقف يقول : ان ما حدث كان غلطة محزنة فانه كان من المفروض ان يكون هناك استعراض فى هذه الساعة . كما قال انه يجب عليه أن ينظف حذائه قبل أن يقابل الوزير المفوض .

فقال :

ـ اذن أنت بالطبع تستطيع أن تذكر للبوليس ما تعرفه عن نشاطه .

فقلت :

ـ ان البوليس غير مهتم بالجنرال ثى كذلك . وهل تعتقد أن البوليس يجرؤ على مس أمريكى . فان له حصانة ديبلوماسية . وهو خريج جامعة هارفارد والوزير المفوض يحب بيل جداً . هنج . لقد رأيت امرأة فى الميدان قتل طفلها فقامت بتغطية مابقى من جثته فى حجرها بقبعتها المصنوعة من القش وأنا لا أستطيع أن أنسى هذه الصورة كما رأيت مثل هذه المناظر البشعة والترع مملوءة بالجثث فى « فات ديم » .

فقال :

حاول ان تكون هادئا يامستر فولر .

ـ ما الذى سوف يفعله فى المدة القادمة يا هنج ؟ كم من القنابل والقتلى من الأطفال يستطيع أن يتسبب فيهم برميل من « الديولكتون ؟ »

فقال :

ـ هل أنت على استعداد لمعاونتنا يا مستر فولر ؟

فتابعت كلامى قائلا :

ـ لقد جاء مقتحما البلاد وكان الناس يموتون نتيجة لأخطائه . وأتمنى لو أن بنى وطنك يتمكنوا من قتله فى أثناء رحلته عبر النهر الى « نام دينه » فان ذلك كان قد غير كثيرا من مصير حياة الكثيرين .

— انى متفق معك يامستر فولر . ويجب أن تمسك بزمامة ولدى افنراح اقدمه .

وسعل رجل خارج الغرفة سعلة خفيفة ثم بصق بصوت مرتفع . وتابع هنج كلامه قائلا :

— لو دعوته الى العشاء هذه الليلة فى مطعم الطاحونة بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف .

— وما الفائدة ؟

فقال هنج :

— سوف نتكلم معه وهو فى طريقه اليك .

— قد يكون ليس بمفرده .

— ربما يكون أحسن لو دعوته الى زيارتك فى المنزل فى السادسة والنصف وسوف يكون بمفرده فى مثل هذه الساعة ومن المؤكد انه سيحضر واذا امكن ابقاؤه لتناول العشاء فانتظر من نافذة مسكنك كما لو كنت تريد ان تشاهد منظر الغروب .

فقلت له :

— لماذا أدعوه الى مطعم الطاحونة بالذات ؟

— لأن المطعم مجاور « للكوبرى » المؤدى الى « ماكو » وأعتقد أننا سوف نستطيع أن نجد مكانا نتكلم فيه بدون أن يزعجنا احد .

فقلت له :

— وماذا سوف تفعل ؟

— أنت لا تريد أن تعرف ذلك يا مستر فولر . غير انى أعدك بأننا سوف نعمل بمنتهى الرفق بقدر مايسمح الموقف .

وسمعت صوت أصدقاء هنج يتحركون فى الخارج كما لو كانوا إفارا خلف الحائط وتابع هنج كلامه :

— هل تفعل ذلك من أجلنا يا مستر فولر ؟

فقلت :

ــ أنا لا أعرف . أنا لا أعرف ».

فقال هنج :

ــ ان عاجلا أو آجلا على المرء أن ينضم الى أحد الجانبين ليبقى آدميا ».

وتذكرت كلام الكابتن « ترون ».

وتركت مذكرة في المفوضية الأمريكية أطلب فيها من بيل أن يمر على بالمنزل وسرت في الشارع قاصدا فندق الكونتننتال لأتناول كأسا . وكان الحطام المتناثر من فعل القنبلة قد أزيل وقامت فرقة الحريق بغسل الميدان من الدم . ولم تكن لدى فكرة وقتئذ كيف أن الزمن والمكان سوف يصبحان مهمين . وفكرت في البقاء جالسا طوال المساء مخلفا ميعادي مع بيل . ثم فكرت في أنني ربما أنجح في اخافة بيل وجعله يبتعد عن العمل الذي يقوم به بتحذيره من الخطر الذي يترقبه أيا كان هذا الخطر . ومن ثم انتهيت من شرب قدح البيرة الذي طلبته وذهبت الى المنزل وعندما وصلت الى المنزل أخذت أتمنى الا يحضر بيل . وحاولت القراءة ولكن لم يكن لدى من الكتب ما يمكن أن يصرفني عن التفكير وربما كان على أن أدخن لأهدىء أعصابي . وأخذت أنصت برغم ارادتي الى صوت وقع أقدام وأخيرا سمعتها . وقرع شخص الباب وفتحت الباب فوجدت « دومنجيز » وقلت له :

ــ ماذا تريد يا دومنجيز ؟

فنظر الى نظرة تدل على الدهشة وقال وهو ينظر في ساعته :

ــ ماذا تريد ؟ ان هذا هو ميعاد حضوري دائما ــ هل لديك تلغرافات تريد أن ترسلها ؟

فقلت :

ــ انى آسف لقد نسيت . ليس لدى تلغرافات .

فقال :

ـ ولكن الا تريد أن ترسلّ شيئا عن القنبلة ؟ ألا تريد أن تكتب خبرا عنها ؟

فقلت :

ـ أكتب شيئا عنها يادومنجيز وارسله ـ فأنا لا أدرى ماذا اكتب وخاصة انى قد رأيت أنا نفسى المشهد وربما قد أثر ذلك فى أعصابى . وأنا لا أستطيع التفكير فى كتابة الخبر على هيئة برقية.

وضربت بيدى ناموسة أخذت تطن حول أذنى ورأيت دومنجيز يتراجع من فعلى بالناموسة فقلت له :

ـ لم يحدث شيء يادومنجيز لقد أخطأتها .

فابتسم بمسكنة فهو لا يقر القضاء على حياة مخلوق حي وعلى كل فهو مسيحى . وسألنى دومنجيز :

ـ هل هناك شيء أستطيع تأديته لك ؟

وكان دومنجيز لايشرب الخمر ولا يأكل اللحم ولا يقتل أحدا وحسدته على رقته فى تفكيره . ثم قلت له :

ـ لا يا دومنجيز اتركنى الليلة .

ورقبته من النافذة وهو يسير فى الشارع ولمحت أحد سائقى « الريشو » قد «ركن» عربته تجاه المنزل بجوار « الرصيف » . وحاول دومنجيز أن يستأجره ولكن الرجل هز رأسه بالرفض وربما كان ينتظر « عميلا » داخل أحد المحال ، لأن المكان الذى وقف فيه لم يكن موقفا للعربات . وعندما نظرت فى ساعتى راعنى انه لم تمر سوى عشر دقائق على انتظارى فى المنزل . وعندما قرع بيل الباب لم أسمع حتى وقع قدميه . وقلت :

ـ أدخل .

ولكن « كالعادة » كان كلبه الذى دخل أولا . وقال بيل :

ـ لقد كنت مسرورا عندما تلقيت رسالتك فقد ظننت أنك كنت غاضبا جدا منى حتى هذا الصباح .

فقلت له :

ـ ربما كان ذلك صحيحا فان المنظر فى الميدان لم تكن جميلا.
فقال :
ـ لقد أصبحت تعرف الآن الكثير . ولن يؤذى أن أقول لك شيئا آخر . لقد قابلت ثى بعد الظهر .
فقلت :
ـ رأيته ؟ . هل هو في سايجون ؟. اعتقد أنه جاء ليرى نتيجة انفجار قنبلته .
فقال :
ـ لقد عاملته بخشونة ياتوماس وأنبته .
وكان بيل يتكلم كأنه رئيس فريق رياضى فى مدرسة وقد أخطأ أحد أفراده فلم ينفذ التعليمات والتدريبات وعلى كل فقد سألته بنوع من الأمل :
ـ هل أعلنت له مقاطعتك اياه بعدما فعل ؟
فقال :
ـ لقد ذكرت له أنه لو قام بأى عمل غير متفق عليه فسوف تنفض أيدينا منه .
فقلت :
ـ ولكن ألم تنفض يديك منه بعد يابيل ؟
ودفعت الكلب بصبر نافد وذلك لاقترابه منى . ثم قال بيل ؟
ـ لا استطيع . اجلس يا ديوك . لا أستطيع مقاطعة الجنرال ثى لأنه الأمل الوحيد لنا فى المدى الطويل ولو تمكن من الوصول الى السلطة بمعاونتنا فاننا نستطيع الاعتماد عليه .
فقلت له :
ـ كم من الناس يجب أن يقتلوا قبل أن تحقق ما تريد ، وتتحقق أن ...
ـ أتحقق أى شىء يا توماس ،
فقلت :

ـ تتحقق أن السياسة ليس فيها شيء اسمه الاعتراف بالجميل .

فقال :

ـ على الاقل فهم لن يكرهونا كما نكرهون الفرنسيين ..

ـ هل أنت متأكد من هذا ـ فأحيانا يكون لدينا نوع من الحب لأعدائنا وأحيانا نشعر بالبغض لأصدقائنا .

ـ أنت تتكلم كأوربى ياتوماس . فان هؤلاء الناس ليسوا معقدين .

ـ هذا هو ما تعلمته فى أشهر قليلة . وبذلك فسوف تدعوهم بالأطفال فى المرة القادمة ؟

فقال :

ـ حسنا...انهم فعلا كذلك بطريقة ما ,

فقلت :

ـ أوجد لى طفلا واحدا غير معقد يابيل . عندما نكون أطفالا فاننا نكون غابة متشابكة من التعقيدات . ونحن نصبح اكثر « بساطة » كلما تقدمنا فى السن . ولكن ما الفائدة من الكلام معك فان مناقشاتنا نحن الاثنين كانت تقوم على غير الحقيقة .

وقمت من جلستى واتجهت ناحية رف الكتب فقال بيل :

ـ عم تبحث يا توماس ؟.

قلت :

ـ انى أبحث عن عبارة كنت مغرما بترديدها . هل يمكنك أن تتناول معى العشاء يا بيل ؟

ـ انى كنت أحب ذلك يا توماس . وأنا فى غاية السرور لأنك لم تعد غاضبا منى وأنا أعلم أنك لا تتفق معى ويمكن أن نختلف فى الرأى . أليس كذلك ومع هذا نظل أصدقاء .

فقلت :

ـ أنا لا أعرف . أنا لا أعتقد هذا .

ـ على كل فان فونج كانت أكثر أهمية من ذلك كله .

ـ هل تعتقد حقيقة ذلك يابيل ؟

ـ ولماذا ؟ انها أهم شيء بالنسبة لى وبالنسبة لك يا توماس .

ـ ليس بالنسبة لى حاليا .

ـ لقد كانت الصدمة عنيفة اليوم يا توماس . ولكن بعد أسبوع سوف ترى فسوف تنساها فنحن قد قمنا بالعناية بأقارب الضحايا .

ـ ماذا تعنى نحن ؟

فقال :

ـ لقد أبرقنا الى واشنطن . وسوف نحصل على اذن باستخدام بعض أموالنا فى معونة الضحايا وأقاربهم .

وقاطعته قائلا :

ـ هل تقابلنى عند مطعم الطاحونة فيما بين التاسعة والتاسعة والنصف ؟

ـ أى مكان تحب يا توماس .

وذهبت الى النافذة ورأيت الشمس قداختفتخلف السطوح . وكان سائق العربة مازال منتظرا على « الرصيف » . ونظرت اليه ورفع وجهه الى . وقال بيل :

ـ هل تنتظر أحدا يا توماس ؟.

ـ لا . فانى قد وجدت القطعة التى كنت أبحث عنها .

ولكى أخفى قصدى عنه أخذت أقرأ وأنا أرفع الكتاب ناحية الضوء الغارب :

« وسرت خلال الطرقات ولم أبال بشيء وحدق النـــاس الى بالنظر وتساءلوا من أكون ؟ ولو كان لدى فرصة لكى أسحق شريرا فانى استطيع تحمل الأضرار لو كانت كبيرة وانه لأمر يبعث على السرور ان يكون معك نقود . انه لشيء مبهج ان يكون معك نقود . »

وقال بيل بنوع من الاشمئناط :
ــ انها قصيدة مضحكة .
فأجبته :
ــ ان الشاعر كان رجلا ناميا من شعراء القرن التاسع عشر ولم يكن هناك كثير على شاكلته .

ونظرت ثانية الى الشارع . فوجدت سائق العربة قد رحل . وقال بيل :

ــ هل فرع الخمر من عندك ؟

ــ لا ولكنني ظننت انك لا تحب أن تشرب ..

فقال بيل :

ــ ربما أكون قد ابتدات أتحرر وذلك بسبب تأثيرك على ، وأعتقد أنك طيب معى يا توماس .

واحضرت الزجاجة والكؤوس ــ ونسيت أحد الكؤوس فى المرة الأولى . وكان على أن احضر الماء وكان كل ما أفعله فى ذلك المساء يستغرق منى زمنا طويلا . وقال بيل :

ــ أنت تعلم أن لى عائلة طيبة ، ولكن ربما كانوا متحفظين بعض الشيء ولدينا منزل من المنازل القديمة فى شارع من شوارع بوستن الجميلة على اليمين الصاعد الى المرتفع فى المدينة وأمى تهوى جمع الزجاج . أما أبى فعندما لايكون مشغولا بعمله فانه يهوى جمع أصول كتب دارون والنسخ النادرة من كتبه . وأنت ترى أنهم يعيشون فى الماضى وربما لهذا السبب كان ليورك هاردنج هذا التأثير على فان كتاباته تفتح الأبواب على الأحداث الجديدة فى العالم أما أبى فهو من المتوحدين الذين يؤثرون الانفراد .
فقلت :

ــ ربما كنت أحب والدك فأنا متوحد كذلك .

وبالنسبة لرجل هادىء فان بيل كان مثرثرا فى هذا المساء ، ولم أسمع كل ما قاله لأن عقلى كان فى مكان آخر . وحاولت أن

أقنع نفسي أن المستر هنج لديه وسائل لاسكات بيل غير الوسيلة العنيفة ولكن في حرب مثل هذه كنت أعرف أنه ليس هناك وقت للتردد ـ والانسان يستخدم السلاح الذى بيده ـ فالفرنسيون يستخدمون قنابل النابالم ومستر هنج يستخدم السكين أو الرصاصة وقلت لنفسي متأخرا بالطبع : انني لم أخلق لأكون قاضيا ولو تركت بيل يتكلم لمدة ثم حذرته ما ينتظره على يد المستر هنج وأعوانه فانه يستطيع قضاء الليل بمنزلي وهم لن يحاولوا قتله في منزلي . وسمعته يتكلم عن مربيته وهو يقول :

ـ لقد كانت بالنسبة لي أحسن من أمي ـ وكانت ماهرة في صنع فطائر التوت .

وقاطعت بيل وقلت له :

ـ هل تحمل معك مسدسا الآن ـ منذ تلك الليلة التي كنا فيها في البرج ؟

فقال :

ـ لا . فان لدينا أوامر من المفوضية .

ـ ولكنك تقوم بأعمال خاصة ذات طابع معين .

ـ ان حملي للمسدس لن يغير من الواقع ـ ولو ارادوا قتلي فباستطاعتهم ذلك وفي الكلية كانوا يسمونني الوطواط .. لأن في استطاعتي أن أرى في الظلام ..

وتوجهت ثانية ناحية النافذة ، وكان هناك سائق عربة منتظرا ولم أكن متأكدا فانهم كلهم يبدون متشابهين لي ولكن أعتقد أنه سائق آخر ، ربما كان ينتظر حقيقة أحد «الزبائن» وخطر لي أن بيل قد يكون أكثر أمنا في المفوضية ، ولابد انهم قد رسموا خطتهم منذ أن أعطيتهم الاشارة لكي ينفذوها في المساء عند كوبري « داكو » . ولم أكن أستطيع أن أفهم كيف ولماذا اختاروا المكان ؟ ومن المؤكد أن بيل ليس مغفلا الى درجة الركوب والمرور في حي «داكو» بعد المساء حيث أن الحراسة لا تكون الا في ناحية واحدة من «الكوبري» .

وقال بيل :

ـ انني أتكلم وحدى ولا أعرف لماذا ولكن هذا المساء بالذات أشعر بالحاجة الى الكلام .

فقلت له :

ـ تكلم . فأنا فى حالة هادئة ، وهذا كل ما فى الأمر ويحسن بنا أن نلغى هذا الموعد على العشاء .

فقـال :

ـ لا . لا تفعل ذلك حيث انى كنت لقد شعرت بأنى قد انفصلت عنك منذ .. حسنا ..

فأكملت له :

ـ منذ أن أنقذت حياتى .

ولم أستطع اخفاء مرارة الجرح الذى سببته لنفسى .

وقال بيل :

ـ لا . أنا لا أعنى ذلك . وعلى كل حال لقد تكلمنا معا فى تلك الليلة . أليس كذلك ؟ كما لو كانت ستكون الليلة الأخيرة لنا .. ولقد عرفت الكثير عنك يا توماس فى تلك الليلة وأنا لا أتفق معك عقليا . ولكن بالنسبة لك فان البقـاء على الحياد قد يكون صحيحا . وأنت تحافظ على حيادك هذا بكل ما تستطيع حتى بعد أن كسرت ساقك فقد بقيت على الحياد .

فقلت له :

ـ ان هناك دائما نقطة للتحول عن هذا الحياد . وربما دفع الانسان لها لحظة عاطفية .

فقـال :

ـ أنت لم تصل الى هذه النقطة بعد . وأشك فى أنك سوف تصل اليها وأنا كذلك لا أعتقد أنى سوف أتغير الا اذا مت .

وقال ذلك بمرح فقلت له :

ـ حتى بعد ما حدث فى هذا الصباح أليس ذلك كافيا لأن يتحول الرجل عن آرائه .

فقـال :

ـ ان الذين ماتوا هذا الصباح كانوا من ضحايا الحرب .. وانه لأمر يبعث على الشفقة . ولكنك فى الحرب لا تستطيع دائما أن تصيب الهدف المقصود .

فقلت له :

ـ هل كنت تقـول مثل هـذا القول لو أن مربيتك التى تصنع لك فطائر التوت قد ماتت الميتة نفسـها .

فتجاهل النقطة وقال :

ـ على كل فانك تستطيع أن تقـول انهم ماتوا فى سـبيل تحقيق الهدف .

فقلت :

ـ أنا لا أستطيع أن أعرف كيف يترجم قولك هذا الى اللغـة الفيتنامية .

وفجأة شعرت بالتعب الشديد وأردت أن ينصرف بسرعـة ويذهب لـكى يقتلوه .. وبذلك أستطيع أن أبدأ الحياة من جديد من النقطة التى قطعها عند ظهوره فى مسرح حياتى . وقال لى :

ـ انت لن تأخذنى مأخذ الجد يا توماس .

ثم قال :

ـ ان فونج فى السينما فما رأيك فى أن نقضى المساء كله معاً فليس لدى ما أفعله الآن .

وبدا لى وكأنما كان هناك شـخص من الخارج يوجهه لـكى يختار كلماته ليجردنى من كل عذر ممكن أتعلل به . وتابع كلامه :

ـ لماذا لاتذهب الى الشاليه ؟ فأنا لم أذهب اليه منذ الليـلة

التى كنا فيها معا هناك والطعام جيد مثل طعام الطاحونة وهناك الموسيقى .

فقلت له :

ـ انى أفضل ألا أتذكر تلك الليلة .

فقـــال :

ـ اننى آسف ، فأنا فى بعض الأحيان أكون مغفلا يا توماس وما رأيك فى عشاء صينى فى حى «شولون» ؟

فقلت له :

ـ لـكى تحصل على عشاء ممتاز فى الحى الصينى يجب عليك أن تأمر به قبل ذهابك بعدة ساعات ، هل تخاف من مطعم الطاحونة يا بيل ؟ ان الأسلاك الشائكة محيطة به تماما وهنـــاك البوليس باستمرار فوق «الكوبرى» ، وأنت لست مغفلا حتى تفـــكر فى السير فى حى « داكو » .

فقـــال :

ـ ان الأمر ليس كذلك وانمـــا فكرت أن الأمر يكون مســليا لو استطعنا أن نطيل من سهرتنا .

وتحرك بيل فأوقع كأسه على الأرض وأخذت ألتقط الشظايا وأضعها فى المطفأة فقال بسرعة :

ـ حظ سعيد . أنا آسف يا توماس .

وأخذت ألتقط الشظايا وأضعها فى المطفأة . وفكرنى الزجاج المتطاير بزجاجات الخمر المنسكبة فى البار وقت انفجـــار القنبلة وقال بيل :

ـ ما رأيك يا توماس فيما قلت ؟ لقد حـــذرت فونج .. اننى سأكون معك .

وقلت لنفسى : تبدو كلمة « حذرت » سيئة للغاية . والتقطت بشظية من شظايا الكأس المكسورة وقلت :

ـ انى مرتبط بموعد فى الماجستك فلا أستطيع مقابلتك قبل التاسعة •

فقال بيل :

ـ حسنا • أعتقد أن على أن أعود الى المكتب وأنا انما أخاف دائما من أن يعطلونى فى المكتب •

وقلت لنفسى :

ـ انه ليس هناك ضرر فى اعطائه هذه الفرصة الوحيدة وقلت له :

ـ لا تبال اذا تأخرت عن الميعاد ـ ولو عطلوك فى المكتب فمر على هنا فى المنزل فسوف أعود فى الساعة العاشرة لو لم تتمكن من تناول العشاء معى وسوف أنتظرك •

فقال :

ـ سوف أخبرك بما قد يحدث •

فقلت :

ـ لا تهتم • ان كل ما عليك أن تحاول مقابلتى فى مطعم الطاحونة أو تقابلنى هنا فى المنزل •

وبذلك يمنح الفرصة للحياة مرة أخرى وقد تكتب له النجاة اذ قد يجد تلغرافا على المكتب يؤخره أو رسالة من الوزير المفوض يقتضى الأمر سرعة الرد عليهما •

وقلت له :

ـ « اذهب الآن يابيل ، فلدى أعمال أريد أن أفهمها •

وشعرت بالتعب وأنا أسمعه يغادر المنزل وصوت مخالب كلبه على الأرض •

وعندما خرجت من المنزل لم أجد عربات للايجار بجوار المنزل وسرت على قدمى الى فندق « الماجستك » وأخذت أشاهد تفريغ قاذفات القنابل الأمريكية وكانت الشمس قد غربت والعمال يعملون على ضوء المصابيح الكشافة ولم تكن لدى فكرة عن محاولة خلق دليل لابعاد الشبهات عنى فى حالة قتله • ولكنى قلت له :

ـ انى ذاهب الى « الماجستك » .

وشعرت بكراهيتى لأن أتمادى فى الكذب أكثـــر من اللازم وسمعت من يقـــول :

ـ مساء الخير . يافولر .

ولقـــد كان ويلكنز .

فقلت :

ـ مساء الخير

فقال :

ـ كيف حال ساقك ؟ .

فأجبته :

ـ انها لا تؤلمنى الآن .

فقال :

ـ هل أرسلت برقية بما حدث اليوم ؟.

فقلت :

ـ لقد تركت الأمر لدومنجيز .

فقال :

ـ « آه » لقد قالوا لى : انك كنت هناك ساعة الانفجار .

ـ نعم . ولكن الجرائد مزدحمة بالأخبار والجـريدة لا تريد كثيرا من مثل هذه الأخبـــار .

فقال :

ـ ان المسألة أصبحت لا طعم لها . وكان الأجدر بك أن تكون حيا فى زمن الصحافة القديمة حين كانوا يرسلون بالبـــالونات . وكان الصحفى يجد متسعا من الوقت لأن يكتب رسائل خيالية . بل كان يستطيع أن يحرر مقالا عن الذى حدث اليوم وكنت تستطيع فى رسالتك الى الجريدة أن تسهب فى وصف الفندق الضخم الذى تنزل فيه ورؤية قاذفات القنابل وتصف حلول الليل أما الآن فلم يعد فى استطاعتك وصف هذا حيث ان كل كلمة تكلفك الكثير عندما ترسلها بالبرق .

وترامى الى آذاننا صوت ضحكات وحطم أحـــدهم كأسا مثلما حطم بيل كأسه وقال ويلكنز :

ـ ان المصابيح تضيء على وجوه نساء جميلات ورجال شجعان مرددا بذلك قول لورد بيرون فى قصيدته عن ليـــلة معركة واترلو ثم قال :

ـ هل عندك شيء تعمله الليلة يا فولر ؟ هل ترغب في أن تتعشى معى ؟ •

فقلت له :

ـ اننى سوف أتعشى فى الطاحونة •

فقال :

ـ أتمنى لك السعادة • ان جرانجر سوف يكون هناك ويجدر بهم أن يعلنوا عن الليالى التى يقيمها جرانجر لهؤلاء الذين يحبون الضجيج فى الحفلات •

وقلت له :

ـ مساء الخير ودخلت دار السينما المجاورة وشـــاهدت فيلما لايرول فلين أو ربما كان تيرون باور فأنا لا أستطيع التمييز بينهما عندما يرتديان « البنطلونات المحزقة » • وأخذ البطل « يتشقلب » على الحبـــال ويقفز من الشرفات ويركب الخيول عارية الظهر كل ذلك بالألوان الطبيعية • وأنقذ البطل فتاة وقتل خصمه وعاش حياة مملوءة بالمغامرات • وكان الفيلم من أفلام الصبيان وكنت أفضـــل رؤية فيلم أو مسرحية أشاهد فيها صورة أوديب بعينيه يقطران دما فمثل هذا الفيلم بالتأكيد يعطى المرء مرانا على مواجهة الحياة اليوم وما من حياة خالدة فالكل له ساعته فلقد حالف الحظ بيـــل فى « فات ديم » وفى الطـــريق من « تانين » ولكن الحظ لن يستمر وأمامهم ســـاعتان فقط لكى يثبتوا أن الحظ معه قد انتهى وجلس بجوارى فى السينما جندى فرنسى وبجانبه فتاة وقد وضع يده على حجرها وحسدته على « بساطته » مما يدخل فى قلبه السعادة أو الشقاء أيا كان أحدهما وتركت السينما قبل أن ينتهى الفيلم وأخذت عربة الى مطعم الطاحونة وكان المطعم محاطا بالأسلاك الشـــائكة

لحمايته من قذف القنابل اليدوية ورأيت جنديين فى نوبة حراسة فى نهاية «الكوبرى» ــ وقادنى صاحب المطعم الذى اكتنز بالشحم نتيجة اطلاقه البرزجندى الشرقى خلال الأسلاك الشائكة الى داخل المطعم . وكان الدخان تفوح فيه رائحة الزبد والأسماك المقلية بسبب الحر الخانق عند المساء وقلة وجود الهواء وقال لى :

ــ هل ستنضم الى حفلة المسيو جرانجر ؟

فقلت :

ــ لا ..

فقال :

ــ هل تريد منضدة لشخص واحد ؟

فجعلنى ذلك أفكر لأول مرة فى المستقبل والاجابة عن الاسئلة التى يمكن أن توجه الى وقلت له :

ــ أجل ! .

ــ لشخص واحد .

وقلت هذا كما لو كنت قد صحت بأعلى صوتى : ان بيل مات ــ وكان المطعم حجرة كبيرة واحدة والمدعوون الى حفلة جرانجر يحتلون منضدة فى أحد الأركان فى مؤخرة الحجرة وأعطانى صاحب المحل منضدة صغيرة بجوار الأسلاك الشائكة . ولم يكن للنوافذ زجاج خوف تطاير شظاياه فى حالة قذف قنبلة يدوية وتعرفت على البعض ممن دعاهم جرانجر وانحنيت لهم قبل أن أجلس . أما جرانجر نفسه فقد أشاح عنى بوجهه . وكنت لم أره من شهور منذ تلك الليلة التى سقط فيها بيل فى حب فونج . وربما لملاحظة قاسية قلتها فى ذلك المساء قد دخلت رأسه من خلال بخارالكحول . لأنه جلس وهو ينظر الى وقد قطب بين حاجبيه على حين جلس معه مدعووه يتضاحكون وكان معه صاحب فندق فى أحد البلاد الصغيرة فى الشمال وفتاة فرنسية لم أرها من قبل واثنان أو ثلاثة قد رأيتهما فى « البارات » قبل ذلك وكان يبدو أنها حفلة هادئة .

وأمرت ببعض الحلوى لأتسلى بها حتى أعطى بيل الوقت الكافى للحضور وأحيانا لاتسير الخطط وفق ما رسمت . وما دمت لم أشرع

فى تناول عشائى فان ذلك يحيى الأمل فى حضوره • ثم تعجبت من هذا الأمل وما أرتجيه منه هل أرتجي التوفيق لفرقة مقـاومة التجسس التى يتبعها • أو أتمنى التوفيق لقنـابل البلاسـتيك والجنرال ثى • أو أتمنى أنا وحدى من دون الناس جميعا نوعا من المعجزة وكم يكون الأمر سهلا لو قتلنا نحن ـ الاثنين ـ على الطريق فى « تان ين » • وجلست أتناول الحلوى لمدة عشرين دقيقة ثم أمرت بالعشاء لأن الساعة قد بلغت التاسعة والنصف وهو لن يحضر الآن ورغما عنى أخذت أنصت لأى شىء ؟ لصرخة • أو لطلقة رصـاص أو لحركة من رجال البوليس فى الخارج • وعلى كل حال فان من المحتمل ألا أسمع شيئا فقد أخذت حفلة جرانجر يتعـالى أصوات أصحابها •

وكان صاحب المطعم الذى له صوت مقبول قد أخـذ يغنى • وتطاير غطاء زجاجة شمبانيا وتابعه ثان وثالث ولكن جرانجر كان صامتا فقد جلس بعينيه المحمرتين يحدق عبر الغرفة • وسـاءلت نفسى : هل ستكون معركة بيننا فاننى لست « كفئا » لجرانجر •

وكان المدعوون يغنون وجلست بعد أن شبعت وفكرت لأول مرة رغما عنى فى أن فونج سالمة وفى أمان • وتذكرت كيف كان بيـل وهو جالس على الأرض فوق سطح البرج بنتظر رجـال الفيتمنة وهو يقول :

ـ انها تبدو غضة مثل الزهرة وكيف ؟•

أجبته :

ـ زهرة مسكينة •

وقلت لنفسى :

ـ انهـا الآن وبعد موته لن ترى وطنه أو تتعلم أسرار لعبـة الكانستا • وربمـا لن تعرف الأمان « والضمان » فى حيـاتها • وتساءلت : بأى حق أقدرها بأقل من تقديرى للذين ماتوا فى الميدان هذا الصباح • وان الآلام لاتزيد بزيادة العدد فقد يعذب جسـد واحـد يحوى كل الآلام التى يمكن أن يشعر بها الكثيرون • ولقـد

أصدرت حكمى كصحفى على أساس العدد وقد خنت بذلك القواعد التى سرت عليها • فلقد أصبحت مشتبكا فى الصراع بين الطرفين مثلى مثل بيل وبدا لى أن تقدير أى شيء لن يبدو سهلا بعد الآن • ونظرت الى ساعتى فوجدتها العاشرة الا الربع وربما كانوا قد أمسكوا به • وربما أن أحدا ما يؤمن هو به قد قام بالعمل بدلا منه وجلس الآن فى دار المفوضية يحاول حل شفرة احدى البرقيات • وسرعان ما أراه قادما يصعد فى السلالم الى مسكنى وقلت لنفسى :

لو جاء الليلة لقلت له كل شيء •

وقام جرانجر فجأة من فوق منضدته وجاء ناحيتى ولم ير حتى الكرسى الذى اعترض طريقه وكاد يسقط فاعتمد بيده على حافة المنضدة التى أجلس عليها وقال :

ـ فولر ، تعال الخارج •

ـ فتبعته الى الخارج برغم أننى كنت فى حالة لا تسمح لى بمقابلته ولكن فى تلك اللحظة ما كنت أبالى لو ضربنى حتى يغمى على لأننا نحن البشر لنا طرق قليلة نعبر بها عن شعورنا بالذنب •

واستند جرانجر على حافة « الكوبرى » وأخذ رجلا البوليس الواقفان للحراسة يرقبانا من بعد وقال :

ـ يجب أن أتكلم معك يا فولر ؟•

فاقتربت منه فى متناول يده وانتظرت فلم يتحرك وكان يبدو لى أنه مثال لكل ما أكرهه فى أمريكا فهو فى نظرى ذو مظهر غير حسن مثله فى ذلك مثل تمثال الحرية وكذلك لايعبر عن شيء كالتمثال تماما وقال دون أن يتحرك :

ـ أنت تعتقد أننى مهرج • أنت مخطىء فى هذا •

فقلت له :

ـ ماذا تريد يا جرانجر ؟•

فقال :

ـ يجب علي أن أتكلم معك يا فولر فأنا لا أريد أن أجلس مع هذه الضفادع الليلة . وأنا لا أحبك يا فولر ولكنك تتكلم الانجليزية نوعا ما من الانجليزية .

واعتمد بجسده الضخم غير المحدود المعالم تحت الضوء الخافت وأردت أن أعرف ماذا يريد .

فقلت :

ـ ماذا تريد يا جرانجر ؟ .

فقال :

ـ أنا لا أعرف لماذا يحبك بيل . ربما لأنه من بوستن ، ولكنني من « بتسبرج » وأنا فخور بهذا .

فقلت له :

ـ ولماذا لا تكون فخورا .

فقال :

ـ هأنتذا ثانية تتكلم بتعال . انكم معشر الانجليز تعتقدون أنكم خير من غيركم . وأنت تعتقد أنك تعرف كل شيء .

فقلت له :

ـ سعدت مساء يا جرانجر . ان لدى موعدا .

فقال :

ـ لاتذهب يا فولر . أليس لديك قلب ؟ . وأنا لاأستطيع الكلام مع تلك الضفادع .

فقلت له :

ـ انك مخمور .

فأجاب :

ـ لقد شربت كأسين من الشمبانيا . هذا كل ماهناك ، أتكون مخمورا لو كنت في مكاني ؟ ان علي أن أذهب الى الشمال .

فقلت له :

ـ وأى ضرر فى هذا ؟٠

فقال :

ـ أنا لم أقل لك .. هل ذكرت لك ..؟ وأعتقد أن الكل يعلمون .. لقد تلقيت برقية اليوم من زوجتى .

فقلت :

ـ نعم ..

فتابع كلامه :

ـ لقد أصيب ابنى بشلل الأطفال وكانت اصابته شديدة .

فقلت :

ـ أنا آسف لذلك .

فقال :

ـ لاعليك .. فانه ليس ابنك ؟.

فقلت :

ـ ألا تستطيع أن تعود الى الوطن بالطائرة ؟.

فقال :

ـ لا أستطيع فانهم يريدون مقـــالا عن عملية حربية ملعونة بالقرب من هانوى . وكونوللى مساعدى مريض .

فقلت :

ـ أنا آسف يا جرانجر . كان بودى لو استطعت مساعدتك .

فقال :

ـ ان الليلة هى ليلة عيد ميلاد ابنى وسوف يبلغ الثامنة فى العاشرة والنصف الليلة حسب التوقيت المحلى فى أمريكا . ولهـذا السبب أقمت حفلة الشمبانيا هذه قبل أن تصل الى البرقية . وكان على أن أقول لشخص ما أشعر به وأنا لا أستطيع أن أصارح هؤلاء الضفادع بشعورى .

فقلت له :

ـ انهم يستطيعون أن يفعلوا الكثير لمعالجة الشلل هذه الأيام •

فقال :

ـ أنا لا أبالي اذا أصبح مقعدا بالتولو بشرط أن يعيش • ولو كنت أنا الذى أصيب بهذا المرض ما أصبحت شيئا • ولكنه يمتاز بذكاء • هل تعرف ماذا كنت أفعل على حين كان هؤلاء الملاعين يغنون ؟ • لقد كنت أصلى • وظننت أنه اذا أراد الله أن يقبض روحا فانه يستطيع أن يقبض روحي ويبقى ابنى •

فقلت له :

ـ هل تعتقد فى الله اذن ؟

فقال :

ـ بودى لو كنت مؤمنا •

ومر بيده على وجهه كما لو كان رأسه يؤلمه من صداع ولكن حركة يده كانت لاخفاء الحقيقة وهى أنه كان يمسح الدموع من عينيه . فقلت له :

ـ لو كنت فى مكانك لجعلت نفسى مخمورا •

فقال :

ـ لا • يجب أن أظل متيقظا ، فأنا لا أريد أن أفكر بعد ذلك • أننى كنت سكران ليلة موت ابنى وزوجتى لا تستطيع أن تشرب • هل تستطيع أن تسكر هى الأخرى لتنسى ؟

فقلت له :

ـ ألا تستطيع أن تخاطب الجريدة التى تعمل معها ؟ •

فقال :

ـ ان كونوللى ليس فى الحقيقة مريضا • لقد سافر الى سنغافورة وراء فتاة يحبها • وعلى أن « أغطيه » والا فصلتنى الجريدة •

وجمع جرانجر جسده المكوم وقال :

ـ آسف اذا عطلتك يا فولر ، ولكن كان يجب أن أتكلم مع شخص ما • يجب على أن أعود الآن الى المدعوين • وانه من المضحك أن أتكلم معك وأنت تكرهنى •

فقلت له :

ـ أنا على استعداد للقيام بالرحلة بدلا منك ، وأستطيع أن أدعى أنها من عمل كونوللى •

فقال :

ـ لا • لن تستطيع فان لهجتك سوف تكشف الموضوع •

فقلت له :

ـ أنا لا أكرهك يا جرانجر ولكنى كنت أعمى عن ملاحظة بعض الأشياء •

فقال :

ـ آه • أنت وأنا كنا كالكلب والقطة ولكن أشكرك على كل حال على عطفك •

وساءلت نفسى : هل أنا مختلف عن بيل ؟ أيجب على أن أدفع بقدمى فى خضم الحياة قبل أن أرى الألم • ودخل جرانجر المطعم وسمعت الأصوات ترتفع ابتهاجا بمقدمه ولم يكن حولى أحد ثم سرت فى الشارع بدون أمل وهناك التمثيث بفوبج •

الفصل الثامن

وسألتنى قونج :

ـ هل زارك مسيو فيجو ؟

فقلت :

ـ نعم . لقد تركنى منذ ربع ساعة هل كان الفيلم حسنا ؟

وكانت قد أخذت الصينية فى غرفة النوم ، وقالت :

ـ لقد كان الفيلم محزنا للغاية ، ولكن الألوان الطبيعية كانت جميلة . ما الذى كان يريده مسيو فيجو ؟

فأجبت :

ـ كان يريد أن يسألنى بضعة أسئلة .

فقالت :

ـ عن ماذا ؟

فأجبتها :

ـ عن هذا وذاك . وأنا لا أعتقد أنه سيضايقنى مرة أخرى .

فقالت :

ـ انى أحب الأفلام ذات النهاية السعيدة . هل أنت مستعد للشرب ؟

فقلت لها وأنا مستلق على السرير :

ـ نعم أنا مستعد .

فقالت :

ـ لقد قطعوا رأس الفتاة .

فقلت :

ـ أى شيء غريب هذا الذى فعلوه ؟

فقالت :

ـ ان ذلك كان زمن الثورة الفرنسية •

فقلت :

ـ آه • فيلم تاريخى • لقد فهمت •

فقالت :

ـ لقد كان الفيلم محزنا على أى حال •

فقلت :

ـ أنا لا أهتم كثيرا بما يحدث للناس فى الأفلام التاريخية •

فقالت :

ـ وحبيبها • لقد عاد ثانية الى غرفته وكان بائسا فكتب أغنية فأنت ترى أنه كان شاعرا وسرعان ما أخذ الناس يغنونهـا حتى أولئك الذين قطعوا رأس حبيبته • وكانت الأغنية هي المارسلييز •

فقلت :

ـ لايبدو أنها تاريخيا جدا •

فتابعت كلامها قائلة :

ـ لقد وقف هناك لدى الجموع التى أخـذت تغنى • وكان شعوره مريرا وعندما كان يبتسم كنت تستطيع أن تشعر أنه أكثر مرارة وأنه يفكر فيها • لقد بكيت كثيرا وكذلك بكت أختى •

فقلت :

ـ أختك تبكى ؟ أنا لا أصدق هذا •

فقالت :

ـ انها شديدة الحساسية • وكان مستر جرانجـر السخيف هناك • وكان مخمورا وأخـذ يضحك فى أثنـاء الفيلم • برغم أن الفيلم لم يكن مضحكا بالمرة • فلقد كان محزنا •

فقلت :

ـ أنا لا ألومه . فان لديه شيئا يحتفل به فولده قد خرج من مرحلة الخطر . فقد سمعت ذلك فى فندق الكونتننتال . وأنا أحب النهايات الجميلة كذلك .

وبعد أن دخنت تمددت على ظهرى . وعنقى فوق المخدة الجلدية وأرحت يدى فى حجر فونج وسألتها :

ـ هل أنت سعيدة ؟

فقالت بعدم اكتراث :

ـ بالطبع .

ولم أكن أستحق جوابا أحسن من هذا . وكذبت وقلت :

ـ لقد عادت الأمور الى ما كانت عليه منذ سنة .

فأجابت :

ـ نعم .

فقلت :

ـ انك لم تشترى وشاحا جديدا منذ مدة . لماذا لا تقومين بشراء واحد فى الغد ؟

فقالت :

ـ ان الغد يوم عيد .

فقلت :

ـ نعم . بالطبع . لقد نسيت ذلك .

وقالت فونج :

ـ انك لم تفتح البرقية .

فقلت لها :

ـ لا . لم أفتحها لقد نسيت ذلك وأنا لا أحب أن أفكر فى العمل الليلة ـ اذكرى لى ما شاهدته فى الفيلم .

فقالت :

ـ حسنا . ان حبيب الفتاة حاول أن ينقذها من السجن فى ملابس صبى وقبعة رجل كالتى يلبسها حراس السجن . ولكن

بينما كانت تجتاز بوابة السجن سقط شعرها فصاح الحراس :
ـ أرستقراطية ـ أرستقراطية .

ـ وأعتقد أن هذه غلطة في القصة . كان يجب عليهم أن يتركوها تهرب لتتزوج حبيبها وبذلك يستطيع الاثنان أن يجمعا مبلغا كبيرا من النقود عن طريق الأغنية وبذلك يستطيعان أن يذهبا الى أمريكا أو انجلترا .

وأضافت كلمة « انجلترا » بنوع اعتقدت هي أن فيه خبثا منها وذكاء فقلت :

ـ يحسن بي أن أقرأ التلغراف . وأضرع الى الله ألا يكون على أن أسافر الى الشمال في الغد . فأنا أريد أن أبقى معك هادئا .

وجاءت بالتلغراف من بين أواني الكريم وأدوات الزينة وأعطتني إياه وفتحته وقرأت فيه :

« لقد فكرت فيما جاء بخطابك ثانية . وأنا أفعل ما كنت تتمناه وطلبت من المحامي أن يعد اجراءات الطلاق على أساس الهجر وليرعك الله « . المحبة : هيلين » :

وقالت فونج :

ـ هل عليك أن تسافر في الغد ؟

فقلت :

ـ لا . ليس على أن أذهب . خذى اقرئيه ـ هاهي ذى النهاية السعيدة بالنسبة لك . فقفزت من فوق السرير وقالت :

ـ ان هذا جميل جدا يجب أن أذهب وأقول لأختي ، فانها سوف تكون مسرورة وسوف أقول لها هل تعرفين من أنا ؟ أنا زوجة مسيو فولر الثانية .

وكان أمامي على رف الكتب كتاب هاردنج « مسئولية الغرب » ورأيت فيه صورة بيل وهو رجل شاب ذو شعر قصير وبجواره كلب أسود عند موطئ قدميه .

وقلت لفونج :

ـ هل تفتقدينه كثيرا ؟

فقالت :

ـ من ؟

فقلت :

ـ بيل •

وكان غريبا الا أستعمل اسمه الأول حتى مع فونج •

وقالت :

ـ هل يمكنني أن أذهب اذا سمحت ؟ فان أختي سوف تذهل•

فقلت :

ـ لقد نطقت باسمه مرة وأنت نائمة •

فقالت :

ـ أنا لا أتذكر أبدا أحلامي •

فقلت :

ـ كانت هناك أشياء كثيرة تستطيعان أن تعملاها • فأنه كان

فقالت :

ـ انك لست بعجوز •

فقلت :

وناطحات السحاب ومبنى الامبابر ستيت •

فقالت بتردد «بسيط» :

ـ اني أريد أن أرى انجلترا •

فقلت لها :

ـ ان انجلترا ليست فى عظمة أمريكا • وأنا آسف يا فونج •

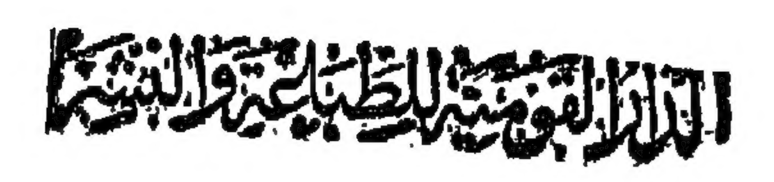
فقالت :

ـ لأى شيء تتأسف ؟ ان البرقية عجيبة . وأختى ...!
فقلت :

ـ نعم . اذهبى وقولى لأختك . ولكن قبلينى أولا .
وقبلتنى بفمها المضطرب على وجهى ثم ذهبت لأختها .

واستعدت ذكرى اليوم الأول وبيل جالس بجوارى فى الكونتيننتال وعيناه ناظرتان الى المحل عبر الشارع . لقد سار كل شيء فى مصلحتى منذ أن مات ولكن طالما تمنيت لو أن شخصا موجودا الآن لكى أستطيع أن أقول له انى نادم على ما فعلت .

(انتهى)


الدار القومية للطباعة والنشر